

محمد حمداوي

ولد المترجم عام 1956 بقرية "زهرا" (بني سنوس-تلمسان) حيث ضريح جد العائلة الأول الشيخ مولاي أحمد العلوي. بدأ حياته العلمية بتعلم القرآن الكريم، فتلقى كلماته الأولى من فم الشيخ سيدي الحاج الهاشمي بقرية "أولاد سيدي الحاج" (عين فزة - تلمسان).
في سن التاسعة، إلتحق بمدرسة "زهرا" وبها أكمل دراسته الإبتدائية. ثم نزح الى وهران في 1970 ليكمل بها تعليمه المتوسط والثانوي والجامعي و من جامعة وهران تخرج بليسانس في علم الإجتماع.

في 1984، سافر الى فرنسا في بعثة علمية، فإستقر بباريس، وإلتحق بجامعة رينيه ديكارت (السوربون) حيث تحصل منها على دكتوراه الدرجة الثالثة في الأنثربولوجيا الإجتماعية والثقافية، عاد الى وهران فورا ليشغل منصب أستاذ بمعهد علم الإجتماع بجامعة وهران وليحضر شهادة الليسانس في الحقوق والعلوم الإدارية ثم شهادة الكفاءة المهنية للمحاماة.

هو حاليا أستاذ بمعهد علم الإجتماع بجامعة مستغانم وباحث بالمركز الوطني للبحث في الأنثربولوجيا الإجتماعية والثقافية، ينصب إهتمامه على الخلدونية وسوسيو أنثربولوجيا الأسرة ويولي لبني سنوس تاريخا وثقافة عناية خاصة.

ISBN:978-9931-00-092-1





ألفريد بل

بني سنوس و مساجدها

في بداية القرن العشرين

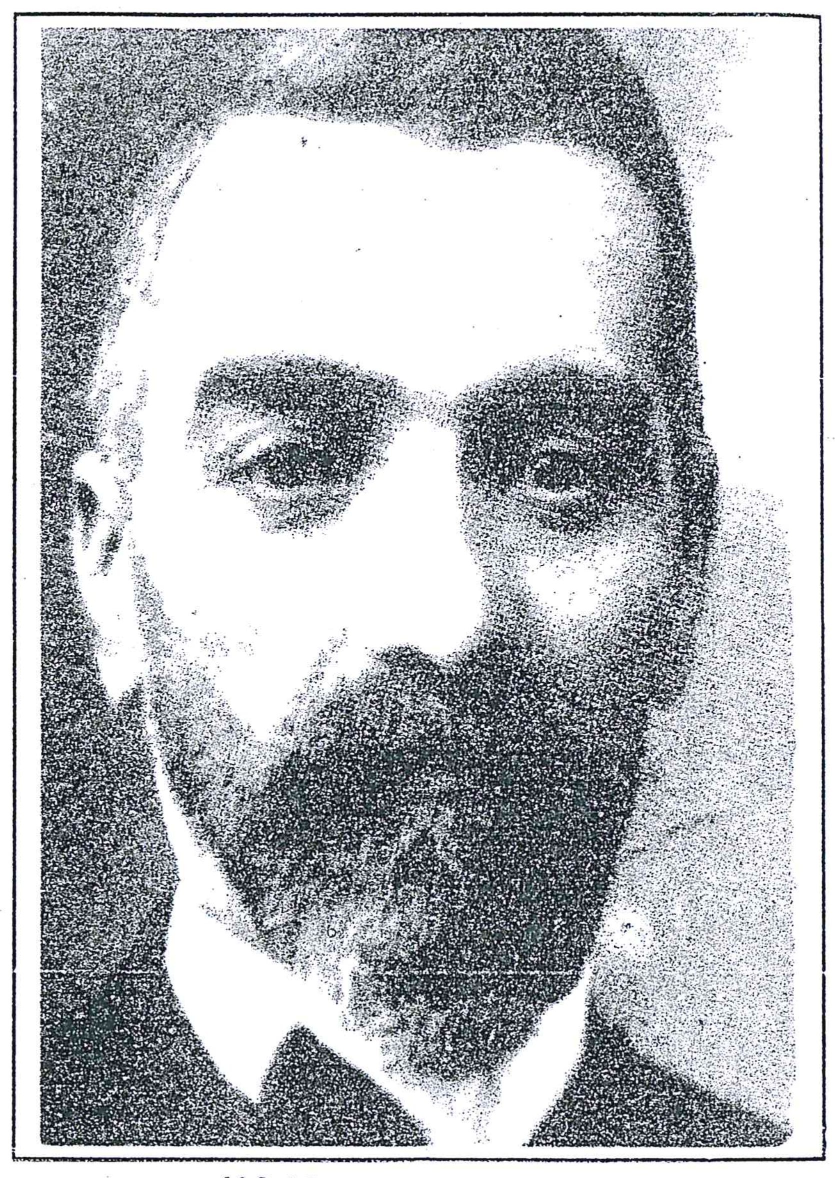
دراسة تاريخية أثرية

تقديم وتعريب

محمد حمداوي

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
بمناسبة
تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

موفم للنشر



ألفرد بل(1873–1945)

01 02 37/11
الإيداع القانون : 2011–2268
ردمك : 1 – 092 – 00 – 9931 – 978

شكر

لقد بذل الأستاذ مصطفى مُرضي جهداً كبيراً، وأنفق وقتاً ثميناً، في مناقشة هذا النص وتصويبه وإخراجه بالشكل الذي هو عليه، تاركاً فيه البصمات الواضحة للباحث، والمودة الخالصة للصديق.

فليكن أول من يجد هنا عبارات الشكر والإمتنان وأخلص معاني المودة والتقدير.

وليجد هنا أيضاً السيد لحسن بن رمضان، الذي أمدّني بصورة مسجد تافسرة العتيق، مسجد سيدي عبد اللّه بن جعفر، هو الآخر عبارات الشكر والامتنان.

إهــداء

إلى روح الشيخ الرئيس الدكتور عبد المجيد مزيان، عالماً عاملاً، ومفكراً أصيلاً، ومجاهداً معتزاً بثقافة الإسلام، عارفاً بأسراره، مدركاً لأبعاده الإنسانية السامية، باعثاً لحيويته المتجددة عبر العصور.

إلى روحه قدوة لكل مسلم مجتهد أصيل، يكرّس التسامح النبيل بين الناس ليتعارفوا ويتعاونوا على الرغم مما بينهم من اختلاف في اللغات والثقافات والأديان.

ذكرى وفاء لما وجدته فيه من أبوة روحية وحب كبير.

محمد مأمون حمداوي

تقديم

يضع السيد محمد حمداوي، الأستاذ بقسم علم الاجتماع بكل من جامعتي وهران ومستغانم والباحث بالمركز الوطني للانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، بين أيدي قرّاء العربية، وخاصة منهم أولئك المهتمين بالدراسات الانثروبولوجية والتاريخية والأثرية، واحداً من بين النصوص العديدة الأخرى لألفرد بل الذي وسمه صاحبه بـ«بسكان بني سنوس ومساجدهم».

وقد اشتمل هذا النص المترجم لألفرد بل على جانبين أساسيين، كما يمكن استنتاج ذلك من عنوانه:

- جانب تمهيدي خاص بسكان بني سنوس في بيئتهم الطبيعية وأعرافهم الإجتماعية ومعتقداتهم الدينية وأنشطتهم المعاشية والحرفية؛

- وجانب آخر، وهو الأهم، وقد اشتمل على وصف موضوعي ودقيق لمساجد بني سنوس الأربعة الرئيسية (مسجد بن تافسرة، مسجد الثلاثا، مسجد الخميس، مسجد بني عشير) في هياكلها المعمارية والهندسية وزخارفها الفنية بهدف تصنيفها ضمن آثار الجزائر التاريخية.

فضلاً عن قيمتها التاريخية كوثيقة نادرة، وقيمتها العلمية التي تتجلى في موضوعية وصفها ودقتها، فإن أهم

قيمة تقدمها هذه الوثيقة المترجمة للدارسين في المجالات التاريخية والانثروبولوجية والأثرية تتجلى في كونها تضع معلماً لحالة بكل معطياتها، يمكن انطلاقاً منها تتبع سيرورة تحول قرى بني سنوس ومساجدها، لمعرفة ما استقر منها وما تغيّر وما درجة هذا التغيّر، وفي أي اتجاه يؤول.ذلك أن معرفة العناصر الثابتة والمتغيرة في وضعية ما، لا يمكن إدراكها بغير معرفة خلفية تاريخية تقدمها لنا معطياتها كما كانت ومنظوراً إليها من خلال تصورات معينة يقوم البحث العلمي باستنباط مسلماتها الضمنية.

بهذا المعنى فإن هذه الوثيقة تصلح، بما تقدمه من معطيات الواقع الموضوعي والتصورات المؤطرة لها، لأن تكون قاعدة انطلاق لإعادة بنائها نظرياً على ضوء معطيات حديثة ومستجدات معرفية في شتى حقول المعرفة العلمية.

وإذا كان صحيحاً أن الحاضر يمكن فهمه بمعطيات الماضي، فإن معطيات الحاضر تُفهم أيضاً بمعطيات الواقع المعاصر في تحولاته وصيرورته، لا كنتاج مكتمل ونهائي وإنما كعملية في طور التكوين والإعتمال.

لم نلمس، ونحن نقرأ مضمون النص، ما يدل على وجود نزعة عرقية متمحورة حول الذات تنظر إلى الأقوام الأخرى بوصفها كيانات بشرية دونية، مجردة من أي ثقافة أو حضارة أو أي شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي، كما لم نجد فيه تلك التصورات، التي لمسناها

عند بعض الكتّاب الأجانب، الذين يحكمون على الشعوب الأخرى بمعايير ثقافتهم وحضارتهم، كما لم نستشف فيه أيضاً ما يوحي بوجود استراتيجية مبطنة لتسخير وظائف المساجد لأغراض سياسية وإيديولوجية، رغم الظروف التي كانت تعيشها الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي آنذاك.

لقد تبيّن أن الغرض من هذا العمل قد تجاوز مفهوم العمل العلمي ومستلزماته الموضوعية المتمثلة في وصف للمساجد في أدق أجزائها وحرصه الشديد على قياس أبعادها بالسنتيمتر ومقارنتها بمساجد أخرى في كل من عاصمة المرينيين فاس وعاصمة الزيانيين تلمسان، ومحاولة تحديد عصرها وتاريخها، إلى أخذ موقف سياسي لا لمصلحة الإدارة الاستعمارية التي ينتمي إليها لغة وثقافة وحضارة وديانة، بل لمصلحة سكان بني سنوس ومساجدهم، والدعوة إلى صيانتها بأموالها الوقفية التي عملت الإدارة الفرنسية على مصادرتها، كما بيّن ذلك المترجم بتفصيل أكثر في مقدمة هذا الكتاب.

لقد استطاع ألفرد بل، أن يتبنى منهجية إثنولوجية أقرب ما تكون إلى الموضوعية، ذلك أنه سعى إلى معرفة لغة أهل البلد واتقانها والاطلاع على عاداتهم وقيمهم الدينية والإجتماعية واستئناسهم والتآلف معهم، من جهة، ومن جهة أخرى، سعى إلى تحييد تصوراته القيمية التي استبطنها من ثقافة أمته، في دراسة سكان بني سنوس وعاداتهم

ومقدساتهم الدينية، فجاء مضمون عمله خالياً من تلك الأحكام القيمية المسبقة التي عهدناها عند كثير غيره من الكتّاب والباحثين الأجانب.

ولعل ذلك واحد من الدوافع الرئيسية التي جعلت معرّب النص يُقدم على تخصيص جزء كبير من هذا الكتاب للتعريف بسيرة المؤلف الذاتية والعلمية والمهنية، وتذييل الدراسة بملاحق تضمنت معجماً فرنسياً-عربياً بالكلمات الأساسية الواردة في النص وقائمة بالأعمال الكاملة لألفرد بل، مصنفة ومبوّبة ومرتبة حسب تواريخ صدورها.

وبذلك يكون العمل الذي قام به المعرّب قد تجاوز حجم الدراسة نفسها، ناهيك عن ما بذله من جهد في الترجمة، والبحث في أمهات القواميس المزدوجة اللغة لإيجاد المقابلات الدلالية لكلمات النص باللغة العربية.

إن الدافع إلى تعريب هذا النص ينطلق، فضلاً عما سبق ذكره، من حرص المعرّب الشديد على الإلمام بكل المعطيات المتعلقة بمنطقة بني سنوس في جوانبها المختلفة، تمهيداً لدراستها ومعرفة تغيراتها واتجاهاتها عبر العصور إلى يومنا هذا، تشدّه إلى ذلك علاقاته الإجتماعية الحميمية باعتباره واحداً من أبناء هذه المنطقة الذي آلى على نفسه إلاّ أن يقدم هذه الدراسة لسكانها عربونا لمحبته ومودته، كما يشير إلى ذلك في المقدمة هو نفسه.

فلا يسعنا، ونحن نطلع على هذا العمل، إلاّ أن نثني على جهد المعرب في التعريف بالتاريخ المحلي في جوانبه المعرفية العديدة والذي يشكل امتداداً للتعريف بقرى الجزائر كلها ماضياً وحاضراً. وليت كل باحث يقوم من جانبه بدراسة قريته ما كان منها ماضياً وما استجد منها حالياً حتى تتظافر جهود الجميع لاستعادة معطيات الجزائر التاريخية والثقافية التي لا زالت جهود التعرف عليها غير مستكملة بعد، ناهيك عن دراستها وفهمها والاستفادة منها علمياً وعملياً.

مصطفى مُرضي

مكلف بالدروس بقسم علم الاجتماع

جامعة وهران

مقدمة المترجم

لا تحتل هذه الدراسة التي خصّ بها ألفرد بل قُرى بني سنوس ومساجدها إلاّ حيّزاً صغيراً ضمن دراساته العديدة المتنوعة والتي مسّت ميادين علمية شتى من تاريخ وجغرافيا وعمران وسياحة وثقافة شعبية وآداب وفلسفة وعلوم إسلامية وأنثروبولوجيا وسير ذاتية...إلخ. وهي دراسة يدرجها إميل جانييه ضمن النشاط الذي طبع المرحلة الأولى من حياة ألفرد بل العلمية، فشكل القاعدة الضرورية التي قام على أساسها نشاط آخر أكثر تألقاً وازدهاراً، عكس فكراً علمياً وقد اكتمل نضجه، وتجربة في التحقيق والبحث وقد بلغت أشدها(1). وهو ذلك النشاط الذي مسّ الجانب الأكثر قوة وثباتاً في حياة المجتمع المغربي الكبير وفي تاريخه، ألا وهو الجانب الديني.

إن دراسة ألفرد بل التاريخية والأثرية لقرى بني سنوس ومساجدهم عبارة عن بحث ميداني سعى مضمونه إلى إبراز القيمة التاريخية والجمالية لأهم مساجد بني سنوس القديمة والكشف عن الوضعية السيئة التي وصلت إليها، في غياب الصيانة، حتى كادت تذهب برونقها الفني وخصوصيتها المعمارية. ولقد توخّى ألفرد بل من وراء ذلك غاية محددة، وهي التمكّن من إقناع مصالح الآثار التاريخية بتلمسان بضرورة تصنيف هذه المساجد رسمياً وتسجيلها ضمن آثار الجزائر التاريخية(2). ذلك أن إضفاء الطابع الرسمي على هذه المباني الدينية تترتب عليه آثار نافعة تتمثل في تكفل الدولة بصيانتها والحفاظ على معالمها،

وتزويدها المستمر بالحصر لتغطية أرضيتها، وتعيين موظفين دينيين يسهرون على إقامة الشعائر فيها ويكون أجرهم على الدولة، كما هو شأن الموظفين جميعاً في المؤسسات العمومية الأخرى.

لم يسبق ألفرد بل إلى هذه المبادرة أحد، ولم يأخذ أحد قبله على عاتقه مهمة الدفاع عن هذه الآثار القديمة وإبراز قيمتها التاريخية والمعمارية والجمالية. وليس اهتمام ألفرد بل بهذه المساجد مجرد دافع تمليه على الدارس علاقته بموضوع دراسته، ثم لا يلبث أن ينتهي بإنجازها، بل هو اهتمام يتجاوز هذا النوع من العلاقات إلى ما هو أسمى من ذلك وأبقى، لأنه يعبّر عما يمكن أن ينطوي عليه الإنسان من أحاسيس راقية تجاه حضارة الآخرين ومقدساتهم ومعتقداتهم الدينية.

إننا لا نشك في أن اهتمام ألفرد بل بمساجد بني سنوس ودفاعه عنها صادر عن شعور صادق نبيل، وتعاطف خالص عميق مع آثار إنسانية قديمة، يبعث رسمها في إطار هذه البيئة الجبلية الرائعة على إعجاب الناظرين، وإثارة فضول علماء الآثار والمؤرخين، وتقدير من شيّدوها بصبر وإيمان، ينفقون على إنجازها من زهيد معاشهم، مدفوعين إلى ذلك باخلاصهم لإسلامهم، ورغبتهم في أن تظل الصلة بين إنسان بني سنوس وبين الله قائمة، يتوارثها جيل عن جيل، لا يزعزعها تواتر البدع مع اطراد الأيام.

كما أننا لا نشك أيضاً في أن ألفرد بل أحسّ بالظلم الذي سلّطته سياسة بلاده الاستعمارية على سكان بني

سنوس ومساجدهم بمصادرتها الأموال الوقفية التابعة لهذه المساجد، والتي منها كان يتم ترميمها وتجهيزها، والإنفاق على أئمتها ومؤذنيها، يزيدون عليها من أموالهم البسيطة الخاصة للاعتناء بطلبة القرآن القادمين إليها من أماكن بعيدة، نظراً لشهرتها الضاربة في الآفاق، وارتباط اسمها بعلماء كبار مثل صاحب العقائد[3] إمام علماء التوحيد والمتكلمين، في المغرب العربي على الإطلاق، الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي.

إن الإدارة الفرنسية الاستعمارية، وهي تلحق ما وقعت عليه يدها من أموال وقفية بأملاك الدولة، لم تَقُم في المقابل بأي صيانة أو ترميم لهذه المساجد التي كانت مزدهرة مصانة لم تمسسها أية خصاصة قبل اجتياح العساكر الاستعمارية «قرى النهرين» السنوسية، بل إنها، في المرة الوحيدة التي تظاهرت فيها بترميم مسجد الخميس، لم تعبأ بقيمة هذا الأثر التاريخية والجمالية، إذ أنها أسندت مهمة إصلاحه لا إلى مهندسين معماريين آثاريين، بل إلى مصالح الطرق والجسور، كما لو كان هذا الصرح العتيق قنطرة أو طريقاً عاماً. وقد ترتب على هذا التظاهر بالاصلاح إفساد الطابع المعماري القديم لقاعة الصلاة وإزالة زخارفها الجدارية الأصيلة.

لم يتردد ألفرد بل عن التشهير بهذه المصادرة الجائرة في حق بني سنوس وأموال مساجدها الوقفية مضمناً ذلك تقريره في أكثر من عبارة. فلقد بيّن في الفقرة الخاصة بصيانة المساجد، «أن المساجد الكبرى وبيوت الصلاة في بني

سنوس وفي العزايل كانت (قبل الاحتلال الفرنسي) مصونة، وكان عمالها الدينيون يتقاضون أجورهم من مداخيل الأوقاف المسماة بالحبوس والتي هي أنواع من الأموال المرصودة. وتعود ملكية هذه الأموال إلى اللّه، لذلك فهي غير قابلة للتصرف (فيها). أما بالنسبة للأموال الأخرى (غير الأموال العقارية)، فإنها مخصصة من طرف الواهب، بموجب عقد مكتوب، لصيانة هذا المبنى أو ذاك، لدفع مقابل هذه الخدمة أو تلك، للإنفاق على هؤلاء الموظفين أو أولئك (ممن هم مكلفون) بالقيام على الشعائر الدينية أو التعليم الديني أو القيام بعمل خيري أو مساعدة عمومية»(4).

كما بيّن في نفس الفقرة أنه منذ استقرار الفرنسيين في الجزائر «ضُمت أموال الحبوس إلى أملاك الدولة»، وأن مساجد بني سنوس التي كانت تملك أموالاً وقفية هامة صارت عائدات عقاراتها تُجبى من طرف مصالح أملاك الدولة، في جزء منها، وأن الإدارة الفرنسية تصرّفت في بقية الأموال مخترقة بذلك قاعدة عدم التصرف في الأموال المرصودة التابعة للمباني الدينية. لقد أصبح الجزء المسند إلى مصالح أملاك الدولة يُعرض للكراء عن طريق المناقصة العامة، وهو عبارة عن حدائق وبساتين تقع في نطاق القرية التي ينتمي إليها المسجد. أما الجزء الآخر من الأموال العقارية فقد وهبته السلطة العسكرية لمقاطعة تلمسان قبل 1850 إلى آغا قديم بتلمسان مكافأة له على الدور الذي لعبه في قمع انتفاضات وقعت في منطقة العزايل(5).

لقد اعتبر ألفرد بل من غير العدل أن تصادر الإدارة الفرنسية أموال هذه المساجد الوقفية وتتنصّل من

مسؤوليتها في صيانتها وترميمها وتجهيزها وتعيين موظفين بها وتولي دفع أجورهم بصورة مستمرة. بل إن ألفرد بل وصل به الحرص على إقناع الإدارة بمسؤوليتها إلى اختيار أسلوب الإغراء لمخاطبتها، قائلاً بأن ترميم هذه المساجد يدخل في إطار السياسة الرشيدة التي يجب على الإدارة الفرنسية أن تنتهجها تجاه المسلمين، وسوف تجني من ورائها فوائد عظيمة(6). ذلك أنه لا سبيل للإدارة إلى كسب مودة المسلمين، وإئتمان شرهم، وامتصاص غضبهم الذي قد يفجر عليها الثورة في أي حين، إلاّ اعتناؤها بما يعتبرونه أغلى المقدسات لديهم، خصوصاً سكان بني سنوس الذين لا يتحملون إلاّ بشق الأنفس سلطة الغريب عليهم، خاصة إذا هو استهان بمقدساتهم، ولا يفوّتون له أدنى فرصة تتاح لهم للانتقام منه لكرامتهم واسترداد حقوقهم.

قد يُفهم من هذه العبارة أن ألفرد بل ينبّه الإدارة الفرنسية إلى إحدى الكيفيات التي تزداد بها بسطاً لسيطرتها على المسلمين وأن خطابه الذكي الحكيم لا يفيد في شيء لا سكان بني سنوس ولا مساجدهم. ولكننا إذا علمنا أن الاستعمار كان في ذلك الحين أمراً واقعاً، يكاد يمر عليه حول من الزمن، وأن بقاء المساجد على وضعيتها السيئة لا يجلب على السلطة العسكرية ضراً ولا نفعاً، أدركنا أن موقف ألفرد بل يخدم مساجد بني سنوس بالدرجة الأولى، خصوصاً إذا كان هذا الموقف مدعوماً بموقفين آخرين هما: التشهير الصريح بأعمال المصادرة التي مسّت الأموال الوقفية والتنديد الشجاع بتنصّل الإدارة الفرنسية من مسؤوليتها تجاه المباني الدينية ومطالبتها بالالتزام بواجبها في صيانة

المساجد بوصفها حقاً مكتسباً مشروعاً، يقابل حق التصرف في الأموال الوقفية من طرف مصالح أملاك الدولة الفرنسية.

إن الذي يؤكد أن هذا الموقف الصريح الشجاع لا يخدم الإدارة الفرنسية هو رد فعلها المتوقع تجاه ألفرد بل، سواء في صورة استياء صريح أو في صورة تصرف يفيد الاستياء الضمني أو حتى الإنذار بعواقب التمادي في التعاطف مع المسلمين والدفاع عن تراثهم الثقافي ومقدساتهم الدينية. والواقع أن الإدارة الاستعمارية كانت تستهجن هذا التحمّس الذي يبديه ألفرد بل في الدفاع عن مساجد بني سنوس وأموالها الوقفية، حاجبة عنه كل المعطيات التي من شأنها أن تقيم الدليل على المصادرة أو على جعل الضيانة حقاً مشروعاً. ذلك أنه حين طلب ألفرد بل من قابض أملاك الدولة بتلمسان إفادته بإحصائيات عن الأموال الوقفية التابعة لمساجد العزايل وبني سنوس، وبالقوائم الضابطة لهذه الأموال لتوثيق هذه الدراسة، لم يلقَ طلبه ترحيباً، وظل ينتقل بين تلمسان ووهران والجزائر، ولم يتلقَ صاحب الطلب رداً(7).

ولا شك أن هذه الاحصائيات كانت ستكشف عن حقيقة أن هذه الأموال المصادرة على جانب كبير من الأهمية وعن مدى الظلم المسلط من طرف الإدارة الاستعمارية على سكان بني سنوس بالسطو على أموال مساجدهم الوقفية وتحويل أغراضها المقدسة إلى أغراض أخرى لطمس معالم الثقافة العربية الإسلامية.

فأي موقف يستطيع أن يكون أكثر شجاعة ونبلاً وإنسانية من هذا الموقف الذي تصدى لإدارة عسكرية متجبرة باغية، يشهر بممارساتها العدوانية أحياناً، ويتهمها بالتنصّل من التزاماتها كسلطة مسؤولة أحياناً أخرى، ويطالبها بارجاع الحقوق المستحقة إلى أصحابها الأصليين في كل حين، والذي وقفه ألفرد بل بكل صرامة واصرار ؟

إن هذه الدراسة التاريخية والأثرية لقرى بني سنوس ومساجدها لتكتسي أهمية بالغة على أكثر من مستوى، مهما كانت حدودها ومهما كانت قيمتها العلمية بجانب دراسات ألفرد بل الأخرى:

1- إن هذه الدراسة هي الوثيقة الوحيدة التي أُنجزت عن مساجد بني سنوس في بداية القرن العشرين، وبالتالي فإنها تكتسي طابع الوثائق النادرة التي يصعب تقديرها بقيمة محددة. لهذا السبب لا نجد مجالاً للمقارنة بينها وبين دراسات ألفرد بل اللاحقة لها، حتى نقول مع إميل جانييه بأنها أقلّ منها قيمة من الناحية العلمية. فقيمتها قائمة بذاتها تستقيها خصوصاً من ندرتها، ناهيك عن موضوعيتها ودقتها وغنى مادتها المعرفية، وعلى وجه الخصوص تلك الفقرة المخصصة لمسجد تافسرة بوصفه أول مسجد في المنطقة.

2- إنها وثيقة يربو تاريخ انجازها على الثمانين سنة، تصوّر مباني بني سنوس الدينية كما كانت في بداية القرن العشرين وتسجل وضعية لا تستطيع أن تكون عليها هذه المباني اليوم، شأنها في ذلك شأن الواقعة التاريخية التي لا

يمكن تكرارها. وعلى هذا الأساس، فإن لهذه الوثيقة قيمة تاريخية.

3- إنها وثيقة علمية من حيث أنها تقدم وصفاً موضوعياً للمساجد المدروسة وملحقاتها. تتوقف عند قاعات الصلاة فتدرس تصاميمها القاعدية وأجنتحها وصفوف جدرانها المقوسة ومحاريبها وقببها وزخارفها الجدارية...إلخ. كما تتوقف عند الصوامع تبحث في أبعادها وتناسقها وزخارفها الجانبية...إلخ. وتتعرض، زيادة على ذلك، إلى المرافق الملحقة بقاعات الصلاة فتقدم وصفاً علمياً عنها، بما يعطي القارىء صورة واضحة عن هذه المباني المقدسة القديمة.

4- إنها وثيقة تضم، إلى جانب المادة العلمية الخاصة بالمساجد، تحليلاً هاماً، رغم إيجازه، عن تاريخ بني سنوس وديانتهم ومواءمتهم بين الموروث والمكتسب والموحى والمبتدع، وارتباطهم بالأرض، وتقديسهم لأشياء الطبيعة وأرواح الأجداد وتجسيد ذلك في الواقع بالمباني وإقامة الشعائر والعوائد، واعين الالتباس بين عبادة الله وتقديس الأولياء، لا يقبلون من أحد مجادلتهم في سبب ارتضائهم العربية لغة والإسلام ديناً.

5- إنها وثيقة علمية انجزت لتحقيق غاية عملية، وهي تصنيف هذه المساجد كآثار تاريخية وتسجيلها بمصالح الآثار التاريخية بتلمسان رسمياً، وذلك لكي تستفيد هذه المباني من الصيانة على حساب الدولة، ولكي يكون لها موظفون دينيون مأجورون رسمياً.

6- أخيراً، إذا كانت المساجد المدروسة قد عرفت تغيراً هاماً، بعد دراستها من طرف ألفرد بل، فإن هذه الدراسة وثيقة مرجعية لا غنى عنها عند القيام بأية دراسة مقارنة غايتها معرفة التغيّر الذي مسّ هذه المباني في مجموعها أو في أجزاء منها، والكيفية التي تمّ بها والشدّة التي طبعته والاتجاه الذي أخذه. أما إذا توافرت الرغبة في إعادة بناء هذه المساجد بنفس تصاميمها الأولية وأبعادها وموادها الأولى أيضاً، فإن هذه الوثيقة تزداد قيمة وأهمية، يُرجع إليها في كل خطوة من خطوات إعادة البناء.

لا شك إذن أن هذه الدراسة النادرة تستحق العناية والاهتمام، لأنها تفيد دارسين كثيرين في اختصاصات متعددة، ناهيك عن المؤرخ وعالم الآثار، ولأنها تسجل موقفاً إنسانياً مع التراث الإسلامي ضد سياسة استعمارية عملت جاهدة على طمس معالم الثقافة العربية الإسلامية في هذا البلد، لتجرّد مسلميه من أقوى سلاح يمكن أن يزعزع كيانها ويفسد عليها مشروعها الاستيطاني وحرصها على البقاء.

وإذا كنّا قد عزمنا على تعريب هذه الوثيقة، فإننا لم نتصور إطلاقاً أن الأمر سوف يكون سهلاً، لا يزيد عن فهم النص في لغته الأصلية وإعادة صياغته باللغة العربية، بل تعمدنا تحمّل العناء تعمداً، وقصدنا مواجهة الصعوبات قصداً، خصوصاً وأن مضمون الدراسة يمس ميادين علمية متخصصة شتى (تاريخ، جغرافيا، جيولوجيا، فن العمارة، علم الآثار...)، وأن الظروف الموضوعية التي تحتضن الحياة الثقافية تقلّ ملاءمتها للبحث العلمي يوم بعد يوم. لذلك،

مهما كان الجهد الذي بُذل في تعريب هذه الدراسة والترجمة لصاحبها وأثرائها بالملاحق كبيراً، فإنه يبقى جهداً فردياً لا يسلم من النقائص ولا يخلو من العيوب. ولا شك أن هذا العمل سوف يجد لدى القارىء العربي، الذي لا ينظر إليه بعين الرضى، النقد الكفيل بتصحيح ما شابه من خطإ وتدارك ما تخلله من نسيان.

وإذا كنّا كذلك قد أولينا ألفرد بل، إلى جانب تعريب دراسته، مكانة خاصة، فأفردنا لحياته وآثاره فصلاً، ولأعماله العلمية الكاملة ملحقاً، فإن ذلك ليس إلاّ بعض الاعتراف بما قدمه هذا العالم لمدينة تلمسان وضواحيها من خدمات جليلة، وما اتخذه من مواقف نبيلة، دفاعاً عن المقدسات الإسلامية التي منها مساجد بني سنوس، وما بذله من جهد لدراسة التراث المغربي والعربي والإسلامي.

فلقد جعل ألفرد بل من مدرسة تلمسان، في عهد إدارته لها (1905-1935)، بحق معهداً إسلامياً عالياً، بلغ المغربين إشعاعه الثقافي والعلمي، ووجدت لها فيه اللغة والحضارة العربيتان مكانتهما البارزة، وتخرّج منه على يدي ألفرد بل خيرة من الإطارات السامية.

– ولقد أفرد لتلمسان دليلاً سياحياً لا غنى عنه لمعرفة كنوزها الفنية المعمارية، وأسس لتلمسان وضواحيها نقابتها السياحية.

– ولقد أثرى متحف الآثار بتلمسان بتحف أثرية نادرة، وجعل منه متحفاً مزدهراً راقياً.

– ولقد توّج علاقته الثقافية والعاطفية بتلمسان بإنشاء «جمعية أصدقاء تلمسان القديمة» وجعل منها إطاراً لنشاط علماء وباحثين يجمع بينهم حب مدينة حضارية عريقة واهتمام بتراث عربي إسلامي أصيل.

– ولقد كرّس، في كل ذلك، جهداً كبيراً للتراث الإسلامي في شمال إفريقيا، ما بقي منه على صفائه، وما تخلله من بدع وما ترسّب فيه من بقايا وثنية قديمة، مسهماً بقسط وافر في إعادة الاعتبار لهذا التراث ومكانته ضمن الحضارات الإنسانية.

فليجد سكان بني سنوس، الذين تشدّني إليهم علائق إجتماعية وقرابية وعاطفية وشيجة، في هذا العمل المتواضع، بعض الرد للجميل الذي يدين به الفرد للمجتمع، وليجدوا بعض التعبير عما أكنّه لتاريخ بني سنوس وتراثها وثقافتها من حرص على الرقي والازدهار، وما أحمله لطبيعتها وإنسانها من شعور بالحب والافتخار.

والله ولي التوفيق

محمد حمداوي

وهران 27 رمضان 1421

هوامش

(1)- أنظر:

-Emile JANIER, *Alfred BEL* (1873-1945), vol. 89, 1945, O.P.U. Alger, 1998, pp. 107-108.

(2)- وهو ما يشير إليه ألفرد بل نفسه بقوله :«لقد سنحت لي الفرصة أن أتحدث شخصياً عن هذه المساجد لمصلحة الآثار التاريخية بهدف التصنيف المحتمل لأهمها. لذلك كُلّفت من طرف هذه المصلحة بمعاينتها عَن قرب للكشف عن قيمتها الحقيقية ومميزاتها الخاصة». أنظر:

-Alfred BEL, *Les Beni-Snous et leurs mosquées, étude historique et archéologique*, Revue archéologique,1920, p. 479.

(3)- من آثار الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (1428م-1489م) في العقائد ما يلي: عقيدة أهل التوحيد، وتُسمى العقيدة الكبرى؛ العقيدة الوسطى، وتُسمى السنوسية الوسطى؛ أم البراهين، وتُسمى العقيدة الصغرى أو السنوسية الصغرى؛ شرح أم البراهين؛ شرح كلمتي التوحيد؛ المقدمات في العقائد؛ شرح المقدمات؛ وشرح صغرى الصغرى. أنظر:

– أبو عبد الله السنوسي، شرح أم البراهين في علم الكلام، تحقيق وتعليق مصطفى محمد الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

– جمال الدين بوقلي حسن، الإمام بن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

(4)- ألفرد بل، مرجع سابق، ص488.

(5)- نفس المرجع، ص489.

(6)- نفس المرجع، ص488.

(7)- نفس المرجع، ص489 (هامش رقم 1).

صاحب الدراسة :ألفرد بل، حياته وأعماله(*)

I- حياة ألفرد بل

وُلد ألفرد ماري أوكتاف بل (Alfred Marie Octave Bel) بسالين (Salins)، وهي مدينة صغيرة من مدن جورا (Jura) بمنطقة فرانش-كومتي (Franche-Comté) المتاخمة للحدود السويسرية-الفرنسية، في الرابع عشر ماي 1873. تلقى دراسته الابتدائية والثانوية بمسقط رأسه بصورة جدية، وتحصّل في بزانسون (Besançon) على شهادة الباكالوريا في العلوم في السابع عشر نوفمبر 1890، وهو لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره.

كانت أسرته متواضعة، فلم يرغب في متابعة دراسته الجامعية حتى لا يثقل كاهلها بمصاريف زائدة، والتحق مبكراً بالحياة العملية. كان أول عمل قام به هو معيد بثانوية أوكسير (Auxerre)، وإن لم يدم ذلك إلاّ سنة واحدة، أي إلى غاية 1891. وفي تلك الأثناء كان التعليم بالجزائر المستعمرة قد بدأ ينتظم، وكانت المدرسة العليا للآداب بالجزائر تعرض على الطلبة الفرنسيين الشباب تكويناً في لغات شمال إفريقيا وحضارتها، وتدعوهم للالتحاق بها، بغية الإعتماد عليهم مستقبلاً في توطين السياسة الفرنسية الاستعمارية.

وللالتحاق بالجزائر، طلب ألفرد بل، الذي كان متحلياً بالشجاعة وروح المغامرة، أن يمارس وظيفته كمعيد بإحدى الثانويات الجزائرية. وربما زاده تشجعاً على ذلك وجود أخيه بمدينة وهران منذ مدة، أستاذاً بثانويتها. هكذا اشتغل أول

سنة من مقدمه إلى الجزائر بثانوية البليدة (جوان 1891- نوفمبر 1892)، ثم انتقل إلى وهران ليشتغل معيداً بثانويتها من نوفمبر 1892 إلى نوفمبر 1897، وهي فترة تخللتها سنة قضاها بالخدمة العسكرية. وسعياً منه لفهم الشعب الجزائري وثقافته، عكف على تعلّم اللغة العربية، فلم يكن يشغل أوقات الفراغ التي يسمح له بها عمله إلاّ بالتمرّن على قواعدها واكتشاف بنيتها ودلالات ألفاظها. ورغم أنه خرج من الخدمة العسكرية بنزلة شعبية مزمنة، بسبب علاجه من مرض التيفوئيد بالحمامات الباردة، فإن اعتزامه على متابعة التعلّم ظل ثابتاً. فلقد قرّر، بالتوازي مع التزاماته المهنية، تحضير شهادة في اللغة العربية، مضحياً في سبيل ذلك بكل أوقات الترفيه.

وفي جوان 1897 تتوج جهد ألفرد بل بالحصول على شهادة في اللغة العربية بامتياز من المدرسة العليا للآداب بالجزائر. كان عميد هذه المدرسة هو رينيه باسيه (René Bas-set)، وعلى يده أجرى ألفرد بل امتحانه في اللغة العربية، فأعجب الأستاذ بالتلميذ وبقدراته اللغوية الفائقة، وتنبأ له بمستقبل معرّب واعد، وشجّعه على الاستمرار في تعلّم اللغة العربية. وحين تبيّن له أن ذلك لا يتيسّر له إلاّ إذا كان قريباً منه، عيّنه معيداً بثانوية الجزائر في أكتوبر 1897.

استغل ألفرد بل إقامته بالجزائر ليتابع دروس المدرسة العليا للآداب، ويتلقى تكويناً جامعياً، فركّز على دراسة اللغة العربية والتاريخ. كانت دروس اللغة العربية مقدمة من طرف رينيه باسيه (René Basset) وإدمون فاغنان (Edmond

Fagnan)، وكان يحضرها إلى جانب ألفرد بل كل من إدمون دوتيه (Edmond Doutté) وادمون ديستان (Edmond Destaing) اللذين سوف يحققان أعمالاً علمية رائدة. فأما دوتيه فإنه سوف ينجز في وقت قياسي أعمالاً علمية سوسيولوجية تضرب شهرتها في الآفاق، وأما ادمون ديستان الذي هو ابن بلد ألفرد بل، فسوف يصبح أول متخصص في اللهجة البربرية على مستوى أوربا كلها في النصف الأول من القرن العشرين. وكانت دروس التاريخ والجغرافيا مقدمة من طرف كل من ستيفان غزل (Stéphane Gsell) وأوغسطين برنار (Augustin Bernard) اللذين تركا آثاراً تعبّر عن كفاءة منقطعة النظير في مجالي تخصصهما، وتعكس المستوى الراقي الذي كانا به يكونان طلبتهما.

وكما يدين ألفرد بل لرينيه باسيه بتعلمه اللغة العربية وتكوينه الجامعي، فإنه يدين له بالمنصب الوظيفي الذي سوف يحدد مجرى حياته ويوجّه نشاطه العلمي الفريد. لقد كانت صحة ألفرد بل هشّة جداً عند تخرّجه من المدرسة العليا للآداب، فارتأى رينيه باسيه أن مناخ تلمسان سوف يساعده على استعادة صحته وعيّنه أستاذاً للآداب بمدرسة تلمسان الفرنكو-إسلامية في نوفمبر 1899. كان وليام مرسيه مديراً لهذه المدرسة وكان إدمون ديستان أستاذاً بها للعلوم، وهو الذي تربطه بالفرد بل منذ 1897 صداقة متينة وحب عميق. وسوف يعزز علاقتهما هذه رغبتهما المشتركة في فهم العالم الإسلامي وثقافته وفي البرهنة على ثراء الحياة الروحية وقوتها لدى المجتمعات الإسلامية عموماً، ولدى شعوب الشمال الإفريقي على وجه الخصوص. ولأن

وليام مرسيه كان يهتم هو الآخر اهتماماً قوياً بميادين اهتمامهما، فإن جهود ثلاثتهم قد تضافرت لتحقيق آثار علمية قيمة عن اللغة والتراث وواقع المجتمع، سوف يرثها طلبة العلم من بعدهم بامتنان.

كان طموح ألفرد بل العلمي كبيراً، فلم يكتف بحصر نشاطه في ممارسة مهنة التدريس، ولم يعتبر ما وصل إليه نجاحاً. وكان حبّه لأشياء هذا البلد وأهله الحقيقيين كبيراً أيضاً، فلم يستطع أن يترك لغيره مهمة البحث والتحقيق، بل أخذها على عاتقه معهم وقام بها خير قيام. ولأنه أحسّ بميوله للدراسات التاريخية، استمر في متابعة دروس ستيفان غزل وأوغسطين برنارد بالمراسلة، وتحصّل في 5 فبراير 1901 على شهادة الدراسات العليا في التاريخ والجغرافيا من المدرسة العليا للآداب بالجزائر، مبرهناً على قدراته البحثية وجدارته العلمية في سن مبكرة. فقد أنجز في الجغرافيا، تحت إشراف أوغسطين برنارد، دراسة معتبرة عن حالة «البحيرات والشطوط والسباخ». وأنجز تحت إشراف رينيه باسيه وباقتراح منه دراسة قيّمة عن «بني غانيه وصراعهم ضد الدولة الموحدية». وقد أظهر ألفرد بل في هذين العملين مستوى يفوق مستوى البحوث الطلابية، خصوصاً منها دراسته التاريخية. فهو لم يكتف ببناء الأحداث الدموية التي جمعت بني غانية بالموحدين في صراع رهيب حول السلطة السياسية، بل زاد سرده إثراء بمراجع وتوضيحات، مستخدماً المناهج الأكثر صلاحية، ومذيّلاً دراسته بجزء غريب من سفر التيجاني لم تنتبه إليه التراجم السابقة.

كانت مدرسة تلمسان الفرنكو-إسلامية توجد في منزل قديم بحي الكراغلة الهادىء، غير بعيد عن مشور الملوك الزيانيين وقريباً جداً من مقام سيدي ابراهيم. وكانت التقاليد العلمية والدينية لهذا الحي الملكي الأصيل تشمل برعايتها هذه المدرسة، يجسّمها سلوك ثلاثة من الأساتذة المسلمين نذروا حياتهم لطلب العلم وتعليمه وهم: السي أحمد بلبشير والسي بن يوسف البغدادي و السي الحاج بن يمينة. فلقد كانوا علماء أصفياء، يحثّهم على نشر رسالة العلم إيمانهم العميق، المتنزه عن كل تعصب أو عنصرية، أو نكران للآخرين من يهود أو نصارى أو ملحدين. ولقد اكسبهم اعتدالهم وتسامحهم إعجاب تلاميذهم وحبّهم واحترام مواطنيهم وفخرهم، لما يكنّه المجتمع من تقديس للعلم، في ظل نظام استعماري يجعل طلبه عزيزاً والطريق إليه شاقاً غير يسير.

ولم يكد ألفرد بل يلتحق بهذه المدرسة حتى اكتسب بسرعة مودة هؤلاء المشايخ المسلمين، وعلى رأسهم السي أحمد بلبشير وكان أكبرهم، والذي أفاده من علمه واتخذه صديقاً. لقد كان دائماً قادراً على فهمه واستقراء مطامحه، فوجّه نشاطه الوجهة الصحيحة، وحثّه على كل عمل رأى فيه إنارة لتساؤلاته وإضافة لمعارفه، كما فعل معه حين حمّسه لقراءة آثار وليام مرسيه لفهم تلمسان وأجوائها الحضارية.

كانت مدرسة تلمسان، حيث يدرس إدمون دوتيه، وإدمون ديستان وغود فروي دومونبين وأوغست كور، عبارة عن مخابر رائعة لدراسة اللغة العربية وآدابها والعلوم

الإسلامية والتقاليد والأعراف والفلكلور... كان النقاش اليومي مع المشايخ حول المواضيع المتنوعة العديدة التي تزخر بها الثقافة العربية-الإسلامية مثيراً دائماً للفضول العلمي ومنبهاً دوماً لمسائل جديدة تدفع العقل إلى معرفة الروح الإسلامية. وبالمثل، كان تعليم المسلمين لا يثري معرفتهم فقط، بل يعود بالفائدة كذلك على معرفة الأستاذ ويشحذ رؤيته. وكان التجوال في البلاد في أيام العطل فرصة لتوسيع نطاق الدراسات بملاحظة الظواهر السوسيولوجية والآثار المعمارية، وبمقابلة الناس وجمع المعلومات عن عوائدهم وتقاليدهم وطبائعهم وأعرافهم وشعائرهم في الأيام العادية وفي مواسم الأعياد والأحزان. وعملاً بنصائح صديقه مرسيه لم يكن يقصر حديثه مع فئة إجتماعية دون غيرها، بل كان أينما وجد المعطى عن الثقافة العربية الإسلامية أو عن الحرفة أو عن الأثر أخذه، سواء عند الراعي أو الفلاح أو طالب العلم أو الفقيه.

ولم يمضِ على استقرار ألفرد بل بتلمسان ثلاث سنوات حتى بدأت دراساته عن الفلكلور والجغرافيا والتاريخ في الصدور، تلتها سلسلة من الدراسات في ميادين مختلفة. وحينما غادر وليام مرسيه إدارة مدرسة تلمسان الفرنكو-إسلامية، لم يجد عميد المدرسة العليا للآداب بديلاً له لإدارتها أفضل من ألفرد بل، الذي أصبح رسمياً مديراً لها ابتداء من أول جانفي 1905. وما هي إلاّ شهور حتى نقلت المدرسة من مقرها المتواضع القديم إلى القصر الموريسي الذي بُني لاحتضانها. هكذا كان ألفرد بل، في أول سنة له مديراً للمدرسة، أن يتشرف برئاسة حفل

تدشينها وذلك يوم 6 ماي 1905، وبحضور السيد جونار (Jonart)، القائد العام، والسيد هوداس (Houdas) الأستاذ بالمدرسة العليا للغات الشرقية بباريس والمفتش العام للمدارس الفرنكو-إسلامية الجزائرية، وشخصيات سامية أخرى فرنسية وإسلامية. وقد ظل ألفرد بل مديراً للمدرسة من أول جانفي 1905 إلى أول جانفي 1935، باستثناء عامين ونصف (أول مارس 1914- 30 سبتمبر 1916) قضاهما بالمغرب استجابة لدعوة الجنرال ليوتي الذي كلفه بمعية زوجته السيدة مرغريت بل بمهمة تكييف التعليم الإسلامي مع المناهج الفرنسية بمنطقتي فاس ومكناس. ولا شك أن الجنرال ليوتي كان قد قرأ مقالات ألفرد بل عن المدارس الأهلية بالجزائر، وأن دعوته له كانت مؤسسة على تقديره له كمنظم وإداري وعالم ينطوي على معرفة عميقة بالثقافة الإسلامية وبنفسية المسلمين.

لقد كانت الشهور الثلاثون التي قضاها ألفرد بل بالمغرب هي الفترة الأكثر خصوبة من حياته العلمية. فلقد سيطر كل شيء في هذا البلد على اهتمامه ونبّه فضوله العلمي، فصار ينتقل من اكتشاف إلى اكتشاف بحماس منقطع النظير. لم تثنه المهمة التي كلفه بها الجنرال ليوتي عن معاشرة العلماء والنخب البرجوازية والنبلاء وفئات الشعب البسيطة والإندماج فيهم بعفوية ولطف سرعان ما اكسباه ثقتهم و أربحاه مودتهم، خصوصاً وأنه يتكلم لغتهم ويعرف دينهم أكثر من أي إنسان آخر.

لم يكن يتوقف عن جمع المعطيات الميدانية عن المهن ولا

الإسلامية والتقاليد والأعراف والفلكلور... كان النقاش اليومي مع المشايخ حول المواضيع المتنوعة العديدة التي تزخر بها الثقافة العربية-الإسلامية مثيراً دائماً للفضول العلمي ومنبهاً دوماً لمسائل جديدة تدفع العقل إلى معرفة الروح الإسلامية. وبالمثل، كان تعليم المسلمين لا يثري معرفتهم فقط، بل يعود بالفائدة كذلك على معرفة الأستاذ ويشحذ رؤيته. وكان التجوال في البلاد في أيام العطل فرصة لتوسيع نطاق الدراسات بملاحظة الظواهر السوسيولوجية والآثار المعمارية، وبمقابلة الناس وجمع المعلومات عن عوائدهم وتقاليدهم وطبائعهم وأعرافهم وشعائرهم في الأيام العادية وفي مواسم الأعياد والأحزان. وعملاً بنصائح صديقه مرسيه لم يكن يقصر حديثه مع فئة إجتماعية دون غيرها، بل كان أينما وجد المعطى عن الثقافة العربية الإسلامية أو عن الحرفة أو عن الأثر أخذه، سواء عند الراعي أو الفلاح أو طالب العلم أو الفقيه.

ولم يمضِ على استقرار ألفرد بل بتلمسان ثلاث سنوات حتى بدأت دراساته عن الفلكلور والجغرافيا والتاريخ في الصدور، تلتها سلسلة من الدراسات في ميادين مختلفة. وحينما غادر وليام مرسيه إدارة مدرسة تلمسان الفرنكو-إسلامية، لم يجد عميد المدرسة العليا للآداب بديلاً له لإدارتها أفضل من ألفرد بل، الذي أصبح رسمياً مديراً لها ابتداء من أول جانفي 1905. وما هي إلاّ شهور حتى نقلت المدرسة من مقرها المتواضع القديم إلى القصر الموريسي الذي بُني لاحتضانها. هكذا كان ألفرد بل، في أول سنة له مديراً للمدرسة، أن يتشرف برئاسة حفل

تدشينها وذلك يوم 6 ماي 1905، وبحضور السيد جونار (Jonart)، القائد العام، والسيد هوداس (Houdas) الأستاذ بالمدرسة العليا للغات الشرقية بباريس والمفتش العام للمدارس الفرنكو-إسلامية الجزائرية، وشخصيات سامية أخرى فرنسية وإسلامية. وقد ظل ألفرد بل مديراً للمدرسة من أول جانفي 1905 إلى أول جانفي 1935، باستثناء عامين ونصف (أول مارس 1914- 30 سبتمبر 1916) قضاهما بالمغرب استجابة لدعوة الجنرال ليوتي الذي كلفه بمعية زوجته السيدة مرغريت بل بمهمة تكييف التعليم الإسلامي مع المناهج الفرنسية بمنطقتي فاس ومكناس. ولا شك أن الجنرال ليوتي كان قد قرأ مقالات ألفرد بل عن المدارس الأهلية بالجزائر، وأن دعوته له كانت مؤسسة على تقديره له كمنظم وإداري وعالم ينطوي على معرفة عميقة بالثقافة الإسلامية وبنفسية المسلمين.

لقد كانت الشهور الثلاثون التي قضاها ألفرد بل بالمغرب هي الفترة الأكثر خصوبة من حياته العلمية. فلقد سيطر كل شيء في هذا البلد على اهتمامه ونبّه فضوله العلمي، فصار ينتقل من اكتشاف إلى اكتشاف بحماس منقطع النظير. لم تثنه المهمة التي كلفه بها الجنرال ليوتي عن معاشرة العلماء والنخب البرجوازية والنبلاء وفئات الشعب البسيطة والإندماج فيهم بعفوية ولطف سرعان ما اكسباه ثقتهم و أربحاه مودتهم، خصوصاً وأنه يتكلم لغتهم ويعرف دينهم أكثر من أي إنسان آخر.

لم يكن يتوقف عن جمع المعطيات الميدانية عن المهن ولا

عن كل ما ينتحله الناس لكسب معيشتهم، ولم يكن يشبع من جمع المخطوطات والوثائق الأثرية وزيارة الآثار وتسجيل الملاحظات عنها، وفك الكتابات الأثرية الغامضة، إلى جانب كل هذا كان هو المفهرس لمخطوطات مكتبة جامع القرويين والمؤسس لمتحف الفنون بالبطحاء.

لقد أولى ألفرد بل للفن المعماري الإسلامي اهتماماً خاصاً، جعله يتعامل مع البناية القديمة في الأوساط الحضرية مثل تلمسان وفاس بشكل حميمي، ويعمل على الحفاظ عليها بكل إخلاص. ولعل في ما يرويه بروسبير ريكارد (Prosper Ricard) عن حياة صديقه القديم ألفرد بل بالمغرب، ما يصوّر بصدق علاقته مع الفن المعماري الإسلامي. فلقد روى أنه في الشهور الأولى من قدومه إلى فاس، اكتشف في المدينة داراً يُسعى لهدمها. وهي سكن جميل في أبعاده المتجانسة وفي أسلوب بنائه الأصيل، يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر، فخطط ألفرد بل مشروعاً لإنقاذه، ولكن السكن كان مهلهلاً جداً، فأصبح هدمه أمراً محتوماً. وحين علم صاحب السكن بمشروع ألفرد بل وهبه كل المواد التي يمكن استخراجها من هذا المسكن المهدوم، فقامت المصالح البلدية بنقل كل القطع المنقوشة للأبواب والشبابيك (المصنوعة من خشب الأرز) وقطع المرمر (التي كانت تشكل الأعمدة والمأطورات) والمرصعات الفخارية، ووضعتها كلها في مسجد قديم بـ«بوجلود».

كان سخاء هذا الواهب مثالاً اقتدى به واهبون آخرون. فلقد طلب ألفرد بل وثائق ثمينة وتحصل عليها، ومنحه

أعيان المدينة نقوداً قديمة، وتحصل من أحد الفخاريين على مصباح قديم كان بورشته، ومن مدير الأوقاف على أخشاب منقوشة جميلة، ومن خليفة الباشا على ثلاثة شواهد أضرحة أحدها يشير إلى أميرة مرينية من أصل مسيحي. وعند مجيء الجنرال ليوتي إلى فاس، تحمّس كثيراً لعمل ألفرد بل وطلب منه وضع خطة لتصنيف ما جمعه وعيّنه محافظاً للآثار. فلما غادر ألفرد بل المغرب في 1916، كان قد أنجز عملاً ضخماً. وعاد إلى تلمسان وإدارة مدرستها الفرنكو-إسلامية، وقد جلب حصاداً من المعلومات المدوّنة التي سوف لن يتأخر عن استغلالها.

كمدير للمدرسة، كان ألفرد بل يحب متابعة دروس الطلبة بنفسه للتأكد من أن الدروس مقدمة بالشكل المطلوب. وقد استفاد الأساتذة الذين كانت لهم معارف واسعة جادة، ولم يجدوا دائماً الوقت لتعلم الطرق الأكثر عقلانية، كثيراً من نصائح ألفرد المنهجية. وحتى يضمن السير الحسن للعملية التربوية، احتفظ لنفسه، بين الدروس المقدمة، بالجزء الأكثر صعوبة من هذا التعليم الذي يهدف إلى تقديم ثقافة مزدوجة: كان هو المشرف على تمارين الترجمة، مولياً إيّاها عناية خاصة، يؤهله لذلك تكوينه أكثر من أي إنسان آخر، وتؤهله لذلك ملكة التحليل والتدقيق التي تولّدت لديه من معاشرة الكتّاب العرب والمثابرة على قراءة التراث العربي، ومن النظرة النقدية التي تنميها في الباحث المناهج الغربية.

تكوّن على يدي ألفرد بل خلال الثلاثين سنة من إدارته المدرسة ما لا يقلّ عن خمسمائة شاب مسلم سوف يتولون مناصب المسؤولية بشمال إفريقيا: لقد أصبح بعضهم موظفين بدور القضاء الإسلامي والإدارة الجزائرية، وأصبح بعضهم الآخر مترجمين بالمغرب بدور القضاء أو بمكاتب الضبط المدنية. وتدين الإدارة العليا المغربية لمدرسة تلمسان ولألفرد بل بالإطارات السامية التي سهرت على تسييرها.

لم يكن ألفرد بل يكتفي بإدارة المدرسة والتعليم، بل كان إلى جانب ذلك مستمراً في البحث في المسائل الإسلامية. ولقد شكّل ماضي الإسلام وحاضره لديه مادة مشوّقة للتأمل والدراسة والتحقيق، فانكبّ على دراستها دون تمييز. وقد لفت نشاطه الحثيث نظر كلية الآداب بالجزائر، فأنشأت من أجله كرسي أستاذية لتعليم اللغة والحضارة العربيتين بمدرسة تلمسان نفسها. وكانت غاية الكلية هي تكوين طلبة شباب في هذه المادة. وبفضل هذا التعليم تمكّن الكثير من الشباب المسلمين، والكثير من الضباط العسكريين، والكثير من الموظفين، والكثير من عناصر البرجوازية التلمسانية، من اكتساب معارف سوف تعود على وظائفهم بالمردودية، وتوجّه نحو رؤية صائبة رغبتهم في فهم الإسلام.

وحتى يستفيد طلبة كلية الآداب من الأعمال الجديدة لألفرد بل ومن المناهج التي طبّقها في فهم الشؤون الإسلامية، فإن عميدها كان يطلب كل سنة من ألفرد بل سلسلة من المحاضرات عن الإسلام. ولقد دعته الحاجة إلى تقديم معلومات جديدة سواء في دروس اللغة والحضارة

بمدرسة تلمسان أو في محاضرات كلية الآداب إلى الاهتمام بالمسائل الدينية، ومن أجل المتتبعين لدروسه ومحاضراته، أنجز أعماله الأولى عن «تقديس الأولياء» و«الزوايا» و«الرواسب السحرية-الدينية في الإسلام».

بالإضافة إلى ذلك، فإن ألفرد بل كان محافظاً لمتحف الآثار الذي أسسه وليام مرسيه. لم يكن هناك أحد يستطيع أن يتولى هذا المنصب ويمتلك الخبرة للاشراف عليه، بعد ذهاب مؤسسه في 1905، مثل ألفرد بل. فأثراه بما اقتناه من آثار منذ تاريخ تعيينه على رأس إدارته: إنها منقوشات أو مسكوكات أو حفريات من مواد الرخام أو الجبس أو الخشب أو النحاس أو الفخار أو الخزف الصيني أو الفسيفساء...

ولم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهي حتى ظهرت لألفرد بل الفائدة من تعريف الفرنسيين بالكنوز الفنية التي تحتفظ بها مدينة تلمسان في معمارها، من غير أن يغيب عنه جلب اهتمام الأجانب إليها من خلال اطلاعهم على جوانبها الجمالية. لهذا أسس ألفرد بل «النقابة السياحية لتلمسان ونواحيها»، بعد أن ألّف في 1908 دليلاً سياحياً من 156 صفحة مزيناً بالرسوم، يمنح السائح المعلومات الأكثر دقة عن تلمسان وتاريخها. وهو كتاب أُعيد نشره مرتين في 1919 وفي 1932، نظراً للنجاح الذي لقيه والإقبال الذي حظي به في الداخل وفي الخارج.

كما أسس ألفرد بل في 1936 جمعية «أصدقاء تلمسان القديمة» لتمكين اتحاد الجمعيات العالمة لشمال إفريقيا من عقد مؤتمرها الثاني بتلمسان. كان يطمح إلى أن يجعل من

جمعيته هذه إطاراً للباحثين، ولكنه لم يدم رئيساً لها طويلاً، لأن أسباباً صحية اضطرته إلى مغادرتها في 1937، تاركاً للسيد لوكوك، الذي كان وكيلاً بتلمسان، رئاستها ومصيرها. فإذا كانت جمعية «أصدقاء تلمسان القديمة» قد ازدهرت بسبب عدد المنخرطين الذين انضموا إليها، إذ بلغوا مائة منخرطاً، فإن توجهها أخذ منحى جديداً جعل منها جمعية شبه إجتماعية، شبه أدبية. ولم تستعد التوجه الذي أراده لها ألفرد بل، إلاّ بعد وفاة السيد لوكوك في 1944 الذي خلفه على رأس الجمعية السيد كردون، معطياً إياها طابع الجمعية العالمة.

حين غادر ألفرد بل المدرسة الفرنكو-إسلامية، فإنه لم يغادر تلمسان التي جعل منها مدينته المفضلة. لقد عاش فيها أربعين سنة، وأنجز فيها أعماله العلمية الرائدة، وارتبط روحاً وفكراً بتاريخها وثقافتها وفنها العربي-الإسلامي الأصيل، حتى أصبح لا يتصور إمكانية عيشه سعيداً في مدينة غيرها. كان يحلم بقضاء أيامه الأخيرة في بيته الجميل بضاحية المدينة قريباً من المقبرة الإسلامية بعين «مانزوتة»، حيث يمكنه الاطلاع على حي سيدي بومدين العتيق من خلال أشجار السرو والزيتون التي تزيّن المناظر الطبيعية الخلابة.

ولكن الأحداث أحياناً تكون من القساوة على الإنسان لدرجة أنها ترغمه على التراجع عن خياراته العادية، وعلى ترك ما ألفه وأحبّه من الناس والأشياء ومزجهم بمشاعره مع تعاقب الأيام. فعلى الرغم من الذكريات السعيدة التي تشدّه

إلى المدينة ومن الحب العميق الذي يحس نفسه محاطاً به من طرف أصدقائه المسلمين، فإن ألفرد بل قرّر الهجرة إلى المغرب، حيث يوجد ابنه لوسيان بل، فغادر تلمسان نهائياً في 1943 وذهب للاستقرار بمدينة مكناس.

لم يكن دفاع ألفرد بل عن تلمسان القديمة ليتمّ دون معارضة بعض المصالح ودون إثارة بعض الاستياء سواء لدى بني دينه أو عند المسلمين. كذلك فإن العالم الذي أحبّه لم يعُد قادراً على الصمود أمام عوامل التغيّر المختلفة. لم يعد يرى في الشباب الذين يلتحقون بالمدرسة كل عام ولا حتى الشباب الذين تتلمذوا عليه أولئك الأبناء الروحيين للشيوخ القدامى الذين عرفهم عند قدومه إلى المدينة. إنها قطيعة موجعة وصراع مأساوي بين الأجيال. وهو صراع سوف تزيده الأجواء السياسية تعكراً وحدة وعنفاً، وهي التي بدأت تكتسي طابعاً إنفعالياً أودى بالتفاهم بين سكان المدينة المختلفين.

وقد عجّل بهجرة ألفرد بل أنه شرع في إنجاز الجزء الثاني من كتابه «الدين الإسلامي في بلاد البربر»، الذي صدر الجزء الأول منه سنة 1936، والذي كان يحتاج تحقيقه إلى الصفو والهدوء والمصادر والمراجع. ولم يكن هناك بلد أفضل من المغرب يستطيع أن يمدّه بما يحتاج إليه من هذا كله، فوقع اختياره عليه داز هجرة وعلم وأمان. لقد سكن ألفرد بل في قلب المدينة العربية بمكناس، فاستعاد حماسه وفضوله الفكري بسرعة، وأعادته متعة البحث إلى أعوامه الجميلة، وتابع عمله العظيم الذي بدأه في تلمسان. فالجزء

الثاني من كتاب «الدين الإسلامي في بلاد البربر» كان لا يزال في حاجة إلى المزيد من البحث والتدقيق والإثراء، وقد وفّرت له مكناس تسهيلات كبيرة من أجل ذلك.

كان لألفرد بل في مكناس أصدقاء مسلمون وعدد كبير من تلاميذه القدامى الذي شملهم بحبه وعنايته في مدرسة تلمسان الفرنكو-إسلامية، فاستقبلوا أستاذهم الشيخ وجعلوا أنفسهم تحت تصرفه في أي حين. ونظراً لبساطته وتواضعه ومدنيته، لم يتأخر ألفرد بل عن اكتساب أصدقاء آخرين، خصوصاً قاضي المدينة الذي شاءت الأقدار أن يكون جاره، وهو شيخ لطيف ولوع بالبحث متفان في خدمة العلم، فوجد فيه ألفرد بل وقد بلغ السبعين ما وجده وهو شاب في شيوخ مدرسة تلمسان القديمة: من صفاء وتقوى وحب لنشر العلم وبعد عن التعصب والعنصرية، وقبول للاختلاف واعتراف بالآخر مهما كانت لغته أو دينه أو عرقه، وهي مناقب تحلى بها دائماً رجل العلم المغربي الأصيل. لقد وضع هذا الشيخ تحت تصرف ألفرد بل كل المخطوطات التي تحتويها مكتبته، مقدراً فيه معرفته الكبرى بالعلوم الدينية والتصوف الإسلامي وجهده في سبيل البحث في حقيقة الإسلام والمسلمين.

كان عمله المتعلق بجمع المعلومات عن الدين الإسلامي في صورتيه: المذهب المالكي والتصوف المرابط، وهو مادة الجزء الثاني من كتاب «الدين الإسلامي في بلاد البربر» قد وصل إلى نهايته. وكان ألفرد بل سيبدأ بصياغة السطور الأولى من مؤلفه، لولا أن الموت عاجله، وحال دونه ودون تحقيق هذا العمل العظيم.

توفى ألفرد بل في 18 فبراير 1945 بمدينة مكناس، بعد عامين من قدومه إليها. فلقد ساءت حالته بعد عودته من أحد الأسفار ولم يستطع أي علاج أن يبعد عنه الأذى، إذ لكل أجل كتاب. وقبل أسابيع ثلاثة من وفاته، استبشر برؤية مولود لدى ابنه لوسيان بل سوف يحمل اسم جده ألفرد بل. ولكن تلمسان ومجتمعها ونخبتها العالمة، ومدرستها الفرنكو-إسلامية و«النقابة السياحية لتلمسان ونواحيها» و«أصدقاء تلمسان القديمة»، ومتحف الآثار، لم يرتبط بها إلاّ اسم ألفرد بل واحد، هو ذلك الذي تبنته تلمسان أربعين عاماً فبرت به وبرّ بها، وأنجز، بسبب حبه لها مدينة عريقة وحضارة أصيلة، أعمالاً علمية رائدة لن يزيدها مرور الزمن إلاّ تثميناً.

II- أعمال ألفرد بل

لقد ترك ألفرد بل أعمالاً متنوعة مسّت العديد من المجالات الفلكلورية والتاريخية والآثارية والدينية. كما نشر وترجم الكثير من الأخبار التاريخية، وقام بدراسات مسحية عن الحرف وأخرى وصفية عن العالم الطبيعي والإجتماعي الذي يحيط به، خصوصاً عالم تلمسان الصغير، ذي الحضارة الأصيلة والآداب الإنسانية العالية، وذي الارتباط الوثيق بتقاليده وعوائده ومميزاته الثقافية. لقد تبنى المجتمع التلمساني ألفرد بل كواحد من أبنائه، وكشف له عن خفاياه وسرائره، وأودع في قلبه حبه المستديم الذي بسببه سوف يحقق إنجازاته العلمية الرائعة.

نعم، يدين ألفرد بل لتلمسان بتجربته العلمية كلها، كما يدين لتاريخها بالكشف له عن واحد من وجوهها التاريخية اللامعة، مؤرخ الملوك الزيانيين، يحيى ابن خلدون، صاحب «بغية الرواد...»، كما يدين لسكانها المسلمين بكل معطياته الميدانية عن الحياة المادية والروحية. كما يدين لصناعها الحرفيين بما تعلّمه منهم من وصف للتقنيات التي تتم بها صناعة الصوف والتي أفادته في إنجاز دراسته عن الصناعة الصوفية بالاشتراك مع بروسبير ريكارد.

عرفنا أن ألفرد بل برهن على قدراته البحثية في سن مبكرة. فلم يكد يمضي عامان على التحاقه أستاذاً للآداب بمدرسة تلمسان الفرنكو-إسلامية حتى بدأت دراساته الأولى بالصدور. هكذا صدرت له بين 1902 و1903 ثلاثة دراسات:

1 – الجازية، أغنية عربية، مسبوقة بملاحظات عن بعض الأساطير العربية وعن سيرة بني هلال (وهي دراسة من 184 صفحة نشرتها المجلة الأسبوعية في ثلاثة حلقات بين 1902 و1903). لقد جمع ألفرد بل نسخة من أسطورة الجازية خلال إقامته ذات عطلة ببني شقران. وأحداث الأسطورة مروية في قصيدة من ثمان وسبعين بيتاً بالعربية الدارجة، درس ألفرد بل محتواها وقيمتها الفنية والأدبية وعلّق على لغتها وعلى الأعراف الريفية وعلى الآلات الموسيقية وعلى اللباس.. تعليقاً ثرياً أضاف إلى محتوى النص فوائد معرفية جديدة.

2– البحيرات والشطوط والسباخ (وهي مذكرة من 39 صفحة ألقاها ألفرد بل بمؤتمر الجمعيات الفرنسية للجغرافيا المنعقد بوهران في 1902)، ونشرته دار بيرييه للنشر في 1903.

3– بنو غانية وصراعهم ضد الدولة الموحدية، وهو كتاب طبع ضمن سلسلة المطبوعات التي تصدرها المدرسة العليا للآداب بالجزائر، ونشرته دار لورو للنشر بباريس في 1903.

وبعد 1905 توالى باطراد إنتاجه الغزير، وقد شكلت الحياة الإسلامية كما شاهدها بمحبة وصفاء النقطة المركزية لأعماله، يزيدها فهماً ووضوحاً المقولات التي كانت تمنحه إياها كتب التراث والتاريخ. وحسب إميل جانييه، فإن نشاط ألفرد بل أخذ اتجاهين:

أ– نشاط الاتجاه الأول: ويمثل مقدمة أعماله، وفيه بدأ بدراسة الفلكلور والتاريخ وعلم الاجتماع لسبر الوضعية

الراهنة للمجتمع المغربي ومحاولة فهم الحاضر بمعطيات الماضي.

ب– نشاط الاتجاه الثاني وهو عبارة عن نشاط متألق مزدهر، وتتويج لتجربة طويلة من البحث والتنقيب. فلقد ظهر لألفرد بل بعد تجربة كافية أن يدرس الجانب الأسمى والأقوى والأكثر ثباتاً للمجتمع المغربي: أي جانبه الديني. وبذلك كانت دراساته الأخيرة جديرة بالتصنيف ضمن بحوث العلوم الإسلامية. إن المنحى الذي أخذه نشاط ألفرد بل يبيّن بجلاء كم كان هذا العالِم حذراً ومتبصراً وحكيماً وعارفاً بالمسائل العلمية التي تمدّه بمفاتيح لمسائل علمية أخرى.

يدخل ضمن نشاط الاتجاه الأول الأعمال التالية:

I- الكتب :

- Histoire des Beni Abdelwad, rois de Tlemcen, par Abou Zakariya Yahia Ibn Khaldoun, Texte et traduction (3 fascicules, 1164 p) ;

- Le travail de la laine à Tlemcen (en collaboration avec Prosper Ricard, 1 volume, 359 p.);

- Un atelier de poterie et de faïences au Xème siècle de J.C.découvert à Tlemcen-Agadir. (60 p.);

- Les industries de la céramique à Fès (319 p.);

- Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El Qarawiyin (176 p;

- Takmilat Es-sila d'Ibn El Abbar. Texte arabe (en collaboration avec Mohammed Bencheneb, 488 p.);

- Zahrat El As, "La fleur du Myrte". Fondation de la ville de Fès, par Abou El-Hassan Ali Djaznaï, texte et traduction (273 p.);

II- الدراسات المنشورة بالمجلات والمداخلات المقدمة في مختلف ملتقيات الجمعيات العلمية:

- Trouvailles archéologiques à Tlemcen (9 p.);

- Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de secheresse chez les musulmans maghrebins (50 p.);

- De l'enseignement réservé aux indigènes musulmans dans les écoles qui leur sont spéciales (27 p.);

- La population musulmane de Tlemcen (57 p.);

- Les Almoravides et les Almohades (20 p.);

- Note sur une inscription de 1846 figurant sur le pont de Négrier (11 p.);

- Note sur une inscription de habous du musée de Tlemcen (7 p.);

- L'enseignement professionnel des jeunes filles indigènes en Algérie (3 p.);

- Quelques monuments de céramique trouvés à Tlemcen (13 p.);

- Fouilles faites sur l'emplacement de l'ancienne mosquée d'Agadir 1910-1911 (21 p.);

- Un dahir chérifien du Sultan Abdellah, fis du Moulay Ismaïl (8 p.);

- La fabrication de l'huile d'olives à Fès et dans sa région (19 p.);

- Note sur trois anciens vases de cuivre gravé trouvés à Fès et servant à mesurer l'aumone légale du Fitr (30 p.);

- Inscriptions arabes de Fès (430 p.);

- La préface d'Ibn El Abbar à sa Takmilat es-sila (en collaboration avec Mohammed Bencheneb, texte et traduction (32 p.);

- Les Beni-Snous et leurs mosquées (43 p.);

- La codification du droit musulman en Algérie (12 p.);

- Une histoire de l'art musulman (15 p.);

- Documents récents sur l'histoire des Almohades (16 p.);

- Les bibliothèques des Médersas algériennes (26 p.);

- Les fractions de la tribu berbéro-arabe de Beni-Hediyel dans une légende hagiographique (17 p.);

- Vestiges d'une villa royale musulmane du début du XIVème siècle de J.C. dans la banlieue de Tlemcen. (38 p.);

-Contribution à l'étude des dirhems de l'époque almohades (68 p.);

- Survivance d'une fête du printemps à Tunis (9 p.);

- Nédroma (23 p.);

- Une épitache tlemcénienne du XV ème siècle de J.C. (17 p.);

- L'ansra, feux et rites du solstice d'été en berbérie (35 p.);

- Projet d'une enquête générale sur les industries traditionnelles des indigènes nord-africains musulmans et juifs (12 p.);

- Vestiges de deux mosquées sur l'ancienne route de Tlemcen à Honaïne (12p.);

ويدخل ضمن نشاط الاتجاه الثاني الأعمال التالية:

I- الكتب:

- La religion musulmane en berbérie, Tome I, Etablissement et développement de l'Islam en berbérie du VII ème au Xème siècle (411 p.).

وكان في عزم ألفرد بل أن يخصص الجزء الثاني من هذا الكتاب لدراسة الوضعية الراهنة للإسلام في صورتيه: المذهب المالكي والتصوف المرابطي. كما يدرس في الجزء الثالث بقايا الديانات القديمة والعادات الشعبية التي اندست واندرجت في مضمون العقائد والطقوس الإسلامية أو المنسوبة إلى الإسلام في شمال إفريقيا.

II- الدراسات المنشورة بالمجلات:

- Coup d'oeil sur l'Islam en berbérie (72 p.);

- Histoire d'un saint musulman vivant actuellement à Meknès (20 p.);

- Sidi Boumédienne et son maître Ed-Daqqaq à Fès (38 p.);

- L'Islam mystique (90 p.);

- Caractère et développement de l'Islam en Berbérie et plus spécialement en Algérie (30 p.);

-La fête des sacrifices en Berbérie (39 p.);

- L'Islam officiel en Algérie (9 p.);

- Le soufisme en occident musulman au XII et au XIII ème siècle de J.C. (17p.);

-Pour une enquête sur les survivances magico-religieuses en Afrique du Nord (16 p.);

- Les premiers émirs mérinides de l'Islam (11 p.);

لقد امتد نشاط ألفرد بل العلمي خلال أربعين سنة من حياته، فأثمر نتاجاً غزيراً. ولو قسمت أعماله على أكثر من عالم لصنعت مجدهم. فهي تضم إلى جانب كتبه الإثني عشر، أكثر من 60 دراسة وأكثر من 25 عرض ببليوغرافي، ناهيك عن الدراسات المنشورة بدائرة المعارف الإسلامية. وسيجد القارىء الكريم قائمة مفصلة بهذه الأعمال في آخر هذه الترجمة.

هوامش:

(*)- لقد استقينا مادة هذه الفقرة أساساً من النصوص التالية:

1- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي حتى اليوم، ترجمة : عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص6-9.

2- Alfred Bel, Edmond DESTAING, in Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran, Tome 62, 2 ème trimestre, 1941, pp. 111-124.

3- Emile JANIER, Alfred BEL, (1873- 1945), in Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran, Tome 65, 1944-1946, pp. 66-76.

4- Emile JANIER, Travaux de M. Alfred BEL, in Revue Africaine, Vol. 89, 1945, Office des publications universitaires, Alger, 1998, pp. 110-116.

5- Geoges MARCAIS, Alfred BEL (1873-1945), in Revue Africaine, Vol. 89, 1945, Office des publications universitaires, Alger, 1998, pp. 103-109.

بني سنوس ومساجدها
"دراسة تاريخية وأثرية"

على بعد بعض العشرات من الكيلومترات غرب-جنوب-غرب مدينة تلمسان وفي أعالي وادي تافنة وروافده الأساسي وادي الخميس، يقطن سكان مسلمون هم «بنو سنوس»، حيث لا تزال نسبة هامة منهم تتكلم اللهجة البربرية. لقد درست لهجة هؤلاء البربر وعاداتهم لأول مرة، ومنذ بضع سنوات، من طرف السيد إدموند ديستان الذي كرّس لها مؤلفات علمية دقيقة ونهائية، سوف نشير إليها لاحقاً.

في هذه الجبال البربرية، المسلمة منذ قرون، حيث سنحت لي الفرصة بالإقامة مرات عديدة خلال العشرين السنة التي قضيتها بتلمسان، توجد مساجد قديمة يستحق بعضها لفت انتباه المهتمين بالفن الإسلامي في شمال إفريقيا.

وللإشارة فإنه، نظراً لصعوبة الوصول إلى بلد بني سنوس الجبلي والإقامة به، فإن هذه الآثار الدينية ظلت إلى الآن مجهولة من طرف الكثير من أفراد المجتمع.

لقد سنحت لي الفرصة أن أتحدّث شخصياً عن هذه المساجد لمصلحة الآثار التاريخية، بهدف التصنيف المحتمل لأهمها. لذلك كُلّفت من طرف هذه المصلحة بمعاينتها عن قرب للكشف عن قيمتها الحقيقية ومميزاتها الخاصة.

وما أنوي تقديمه في هذه السطور هو نتيجة هذه الدراسة الميدانية البسيطة عن مساجد هامة للريف البربري، في إطار بيئتها الجبلية الرائعة ومؤمنيها المخلصين الأتقياء.

رغم أن الأمر هنا لا يتعلق بتلك المعالم الفاخرة التي أقامها المسلمون لإحياء دين الله وزخرفوها بشكل وفير، فإنه قد توجد هنا– وأنا أتمنى ذلك– بعض الفائدة في معرفة الهندسة المعمارية والفن الإسلامي وفي معرفة الذهنية البربرية كذلك، من خلال دراسة المساجد المتواضعة التي أقامها بورع هؤلاء الجبليون، المجاورون لتلمسان، وحافظوا عليها من أجل العقيدة الإسلامية التي قاوموها في البداية بكل ضراوة.

I- بلد بني سنوس وسكانه: نبذة تاريخية

في الجنوب-الغربي لمدينة تلمسان، وفي أعالي وادي تافنة وأواسط وادي الخميس وأسافله، تنتشر القُرى البربرية الرائعة لقبيلة العزايل (بلدية سبدو المختلطة) وقبيلة بني سنوس (بلدية مغنية العسكرية).

هناك طريق واحد طوله 33 كلم و400م، عُبِّد منه 22 كلم، يقود من تلمسان خلال غابة أحفير إلى إحدى هذه القرى وأقربها، وهي قرية زهرا (480 نسمة، 1920). ويمكن الوصول، إنطلاقاً من زهرا إلى قرى المناطق الأخرى، بواسطة دروب متباينة الجودة، ولكنها لا تصلح دائماً لسير السيارات.

إذا ألقينا نظرة على خارطة لهذه المناطق الجبلية، لاحظنا أن نهر تافنة الذي ينبع في أسفل غابة مرشيش، على بعد عشر كيلومترات من سبدو، يبدأ سيله نحو الشمال (حتى يكاد يقترب من سبدو ببضعة أمتار، فيصطدم بسد جبلي يتراوح ارتفاعه بين 1200 و1300 متراً، متوجهاً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ثم يتبع السد الجبلي نحو الشمال-الغربي. انطلاقاً من ذلك المكان يبدأ النهر سيله في مجرى ضيق جداً، تشرف عليه جبال مشجرة وصخرية، تنعدم فيها المجالات الصالحة للزراعة. غير أنه بعد بضعة كيلومترات يتسع الوادي ليبلغ عرضه من 2 إلى 3 كلم على طول 15 كلم تقريباً. هنا توجد زراعة للحبوب وحدائق للخضر والبقول وبساتين للأشجار المثمرة. وهنا توجد القرى الأربعة لقبيلة العزايل، يشرف عليها جهة الغرب الجرف الأمغر لقرن زهرا (1295 متراً علواً)، وهي: تافسرة

(684 نسمة، 1920)؛ الثلاثا (600 نسمة، 1920)؛ زهرا (480 نسمة، 1920)، على الضفة اليسرى لنهر تافنة، على بعد منه يتراوح بين 1000 و1500 متراً، وقرية بني بحدل (797 نسمة، 1920) المبنية على المنحدر الوعر وفي تجاويف كتلة الترافرتين (الجبلية) المشرفة على نهر تافنة على الضفة اليمنى على علو يُقدر بمئة متر.

هذه القرى محاطة كلها بالخضرة: أشجار الزيتون العتيقة، والأشجار ذات الأنواع المختلفة، خصوصاً أشجار الخوخ المشهورة الثمار، والتي تشكل مع حدائق البقول والخضار حزاماً نزهاً لهذه القرى ذات المنازل المغطاة بسطوح مستوية. يبلغ العدد الإجمالي لقبيلة العزايل المشكلة من القرى الآنفة الذكر ومن قرية أزناي (81 نسمة، 1920) 2742 نسمة موزعة على 513 موقداً، أي ما يعادل 5,34 نسمة في كل دار.

يعتبر سكان العزايل (تافنة العليا) من نفس الطائفة والعرق التي ينتمي إليها سكان بني سنوس، جيرانهم من الجهة الجنوبية-الغربية الذين يقطنون بلداً أكثر خشونة وأكثر وحشية يقع على ضفاف وادي الخميس، رافد تافنة جهة اليسار والذي يصبّ فيه قبل قرية بني بحدل بقليل.

إذا نحن صعدنا نهر الخميس الذي يتجه سيله من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي، منطلقين من ملتقى هذين النهرين (الواقع على علو 600 متراً من سطح البحر) اللذين تتساوى أهميتهما في هذا المكان، فإن الوادي يبدأ واسعاً جداً: تحفه على الجهة الجنوبية-الشرقية وعلى الجهة

الجنوبية جروف مغراء (ذات علو يتراوح بين 1300 و1500 متراً، وذات قمم أطلالية مميزة للتكوين الجيولوجي الثاني لمرتفعات تلمسان الجبلية، توقفه على الجهة الشمالية الغربية وعلى الجهة الشمالية حواجز جبلية لا يتجاوز علوها 850 متراً. ويضيق الوادي مباشرة بعد مطحنة الآغا، في المكان الذي نجتاز منه النهر على معبر نصل إليه عن طريق صاعد يوازي النهر على الضفة اليسرى.

انطلاقاً من هذا المعبر، ندخل منطقة قبيلة الخميس، ونصادف بادئين توجهنا من سافلة النهر، سلسلة من القرى المكوّنة من تجمع أو عدة تجمعات منزلية بسطوح مستوية وبدون طوابق: بني حمو (5 تجمعات بمجموع 715 نسمة، 1920)؛ الخميس (1720 نسمة، 1920)؛ أولاد موسى (تجمعان بمجموع 420 نسمة، 1920)؛ أولاد عربي (185 نسمة، 1920)؛ بني عشير (تجمعان بمجموع 625 نسمة، 1920)؛ بني زيداز (285 نسمة، 1920)؛ وأخيراً مازر (292 نسمة، 1920)، أي ما عدده 4242 نسمة لمجموع القبيلة موزعة على 720 موقداً، مما يعادل متوسط 5,89 نسمة في كل دار.

في أسفل النهر قبل قرية الخميس بقليل، فإنه كلما صعدنا كلما ضاق مجرى الوادي، حتى ينحصر بين كتلتين صخريتين لا تكاد تترك على حافتي النهر إلاّ شريطاً يتراوح طوله ما بين 200 إلى 300 متراً من بساتين الخضار والبقول يقتات منها هؤلاء الجبليون الفقراء.

واضح أن قرى العزايل المبنية في السهل والمروية بمنابع عديدة وغزيرة، لها مظهر مختلف عن مظهر قرى بني

سنوس المعلقة في منحدرات الجبال الصخرية الوعرة، والقريبة جداً من مجرى نهر الخميس.

غير أنه، سواء أكانت هذه القرى البربرية موجودة في سهل العزايل الضيّق أو على حدود الحقول قريباً من مجرى نهر الخميس، فإنها تتميّز شكلاً عن قرى ترارة (منطقة ندرومة) أو عن قرى القبائل الكبرى وغيرها من المناطق البربرية الأخرى، حيث تتوّج القرى رؤوس الجبال والأجراف الصخرية المطلة على البحر، شأنها في ذلك شأن الحصون العسكرية.

وكما هو الشأن في بلاد القبائل فإن الأرض هنا من الندرة ما يجعل أهلها جريصين على ألاّ يضيع منها أصبع واحد. لذلك، فإن المنازل في بني سنوس مبنية على الصخور الجرداء، يستفيد أهلها من المغارات والكهوف التي تخترق هذه الجبال، والتي تقام المنازل عليها. هكذا تستخدم هذه المغارات كغرف أو منازل أو مرابض. ففي الخميس مثلاً، يوجد بكل منزل مغارة (كل دار بغار). كذلك غالباً ما يسكن في المغارات الموجودة تحت المسجد أو تحت لواحقه من الغرف، طلبة القرآن التابعون للمسجد.

ذلك أن كل قرية من قرى هذه القبائل البربرية تملك مسجداً، وأنه في كل مسجد هناك طلبة من القرية ومن المناطق المجاورة يتعلمون القرآن. وكما هو الشأن في كل مرتفعات تلمسان الجبلية وفي كل جبال المغرب، هناك عادة قديمة جداً وهي أن يكون المسجد مكاناً يؤمه «الطلبة»، الذين هم غرباء عن القرية، بل وحتى عن المنطقة في الغالب، لحفظ

القرآن عن ظهر قلب، دون فهمه مع ذلك. ويعتبر السكان من الواجب المقدس- الذي يعود بالبركة على قريتهم وعلى محاصيلهم الزراعية الفقيرة- أن يعينوا على إطعام هؤلاء الطلبة الغرباء وأن يعتنوا بهم. ألا إن قراءتهم المستمرة لكلام اللّه تنشر حول المسجد ترتيلاً ممتعاً وبركة لا غنى عنهما.

في وادي العزايل الأكثر انبساطاً يزرع السكان بعض الحبوب حول الحقول المسقية أو أبعد منها. أما سكان الشعاب العميقة والصخرية لوادي الخميس، فليس لهم موارد فلاحية أخرى غير تلك الخضار القليلة التي يزرعونها في حقولهم الضيّقة، مع بعض الأقدام من الذرة، تحت الأشجار الكبيرة. لذلك، فإن هؤلاء السكان في حاجة إلى شيء آخر غير الزراعة لضمان عيشهم. ورغم أن هذه البلاد الصخرية فقيرة المراعي، فإنه لا تخلو دار أبداً من رأسين أو ثلاثة رؤوس من الأغنام، ماعزاً أو غنماً أو بقراً، غير أن الذي يحيا عليه السكان خصوصاً هو الصناعات المحلية. ومن بين هذه الصناعات، تبقى الحصر المزخرفة (بالصوف والحلفاء) والمسماة حصر بني سنوس هي الأهم بكثير. إنها توزّع في الجزائر كلها وتستخدم غالباً لتغطية أرضية قاعات الصلاة بمساجد المدن الوهرانية. إن نساء البلد هن اللواتي ينسجن هذه الحصر الجميلة، وفي كل أسبوع تقام في الخميس السوق الرئيسية التي كانت تبيع قبل الحرب ما مقابله 100.000 فرنك فرنسي سنوياً.

هذه هي صورة بلد بني سنوس ووضعية سكانه الحالية في كلمات، فماذا نعرف عن ماضيه؟

إن هذه المرتفعات الجبلية التي تتجّه تعرجاتها من الجنوب-الغربي إلى الشمال-الشرقي تقريباً، وباستثناء شريط ضيق من الأحجار النضيدية الأولية، هي ذات تربة جوراسية خصوصاً، وتبلغ قممها علواً قدره 1200 إلى 1500 متراً.

إن وضعية الطبقات الجيولوجية، كما هو الحال بالنسبة لمرتفعات تلمسان كلها، ملائمة جداً لظهور الينابيع. فقمم المرتفعات الجوراسية عبارة عن أحجار كلسية دولوميتية مرتكزة على حتٍ مسامي قاعدته طبقات جمعرية تنفجر على مستواها الينابيع. وهذه القمم الصخرية المتآكلة بصورة تجعلها شبيهة بحزيات حصون قديمة، هي ذات مظهر غريب، في حين أن جوانبها منخورة بكهوف. فالمياه في جريانها تسحب على المنحدرات الكلس الذي تحمله من القمم وترسبه، مما يؤدي إلى تشكل هذه الكتل الترافرتينية، الكثيرة التي تميّز هذا البلد، مع وجود مغارات كثيرة على جوانبها الداخلية، وهي في الغالب مسكونة، كما هو الحال بالنسبة لمغارات قرية بني بحدل.

لا شك أن بلداً كهذا، رغم مساحاته الزراعية الضيقة، كان بفضل مخابئه الطبيعية ومياهه الغزيرة، سكناً للإنسان منذ زمن بعيد، وأن البحوث عن بقايا العصور ما قبل التاريخية في هذه المناطق سوف تؤدي إلى اكتشافات كثيرة.

غير أن هذه الوديان العميقة، المنعزلة عن طرق المواصلات الكبرى، وعن مراكز تلمسان ووجدة الهامة، لم تكن ذات شهرة كبيرة في التاريخ.

من الممكن أن يكون الرومان قد شيّدوا في هذه المناطق بعض الأبراج العسكرية للمراقبة أو كانت لهم بعض الاستثمارات لاستخراج زيت الزيتون، غير أنه لا تجوز المبالغة في نسبة الآثار التي ترجع حقيقة إلى الحقبة الرومانية في هذا البلد. وكما أمكنني اكتشاف ذلك، ينسب السكان، في الأغلب، إلى الرومان أطلال أسوار- يسمونها إضافة إلى ذلك «كدية النصارى»، «برج الرومي»- هي بكل بساطة أطلال بربرية(1).

في كتابه Algéria Romana تحدّث ماك كارثي(Mac Carthy) قليلاً عن بني سنوس، وأشار إليها ابن خلدون في كتاب العبر، فذكر في تاريخ البربر قبيلة بني سنوس (القرن الرابع عشر)؛ وفي زمن أقرب إلينا من ذلك، تكلم ليون الإفريقي (Léon L'Africain XVI) عن تافسرة كمركز منجمي هام ونشيط، ولم يفت كانال أن يخصص لهذه الواديين البربرية بعض الصفحات من دراسته «مونوغرافيا دائرة تلمسان».

غير أننا إذا أردنا أن نكوّن فكرة عن المعلومات الغامضة التي يمكن الحصول عليها عن تاريخ سكان بني سنوس وبلدهم، وإذا رغبنا في الاستعلام بصورة دقيقة وكاملة بعض الشيء عن هؤلاء السكان، وصناعاتهم ونمط معيشتهم ومعتقداتهم وأساطيرهم وعن الصورة التي رسموها لأنفسهم، لابد من الرجوع إلى مقدمة إدموند ديستان وإلى النصوص العديدة المترجمة من طرفه في كتابه «دراسة عن لهجة بني سنوس البربرية» (الجزئين الأول والثاني).

أن يكون هؤلاء البربر الذين يسكنون اليوم وادي تافنة والخميس منحدرين من قبيلة بني حبيب، وأنهم أسلموا، كما يقال، على يد إدريس الأول، ثم طردوا بعد ذلك إلى المغرب، أو أنهم يمثلون أسراً جاءت من فيقيق منذ القديم، فإن ذلك ما لا نستطيع الجزم به. ولكننا نميل إلى الاعتقاد، مع ابن خلدون، «أن قبيلة بني سنوس، إحدى بطون كومية ولهم ولاء في بني كمي (الجماعة التي ينسب إليها عبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين). ولما فصل بني كمي إلى المغرب (في عصر الموحدين، القرن الثاني عشر)، قعدوا عنهم، وارتبطوا ببني يغمراسن (لاحقاً) فاصطنعوهم (القرن الثالث عشر»(*).

ويبدو أنهم لعبوا بعض الدور أيضاً في تاريخ تلمسان تحت حكم دولة بني زيان. فلقد كان أحدهم، وهو يحيى بن موسى السنوسي في عام 728 هـ (1327-1328م)، قائداً من قادة سلطان تلمسان الكبار.

إذا لم يكن لسكان بني سنوس مثل الشعوب المحظوظة تاريخ معروف، فالأكيد أنهم، بسبب قلّة الموارد الزراعية التي يبخل عليهم بها بلدهم الصخري، تحتم عليهم العيش في جزء كبير من حياتهم على منتوجات صناعاتهم. لذلك، كان لا بد من إيجاد أسواق لهذه الصناعات ولمستخرجات مناجم تافسرة التي استغلت بشكل مكثّف في القرن السادس عشر، كما يقول لنا ذلك ليون الإفريقي، ولِحُصر وادي الخميس المزخرفة، المصنوعة هنا منذ قرون، والتي كانت تدخل، خلال الحكم التركي- على حد قول فالسين

اسطرازي (Walsin Esterhazy)- كواحدة من الضرائب العادية التي يقدمها البلد.

كان سكان بني سنوس يجدون هذه الأسواق، قديماً مثل اليوم في أكبر مدينة مجاورة، في تلمسان على وجه الخصوص. وهذا ما يدل أيضاً على أنه، سواء في عصر ملوك تلمسان أو في عصر الأتراك أو في عصرنا الحاضر، ارتبط سكان بني سنوس بالضرورة سياسياً وإدارياً أو إقتصادياً على الأقل بمدينة تلمسان.

لم يتوان الفرنسيون، الذين سيطروا على تلمسان نهائياً منذ 1842، في بسط سيطرتهم على بلد بني سنوس في 1846. وقد تطلب الأمر قمع مختلف الإنتفاضات التي قام بها هؤلاء في بداية الاحتلال (في النص: احتلالنا) الفرنسي. غير أنه يمكن أن نؤرخ لبداية المرحلة التي خضع فيها سكان بني سنوس نهائياً للسلطة الفرنسية بيوم 22 سبتمبر 1848.

II- ديانة بني سنوس ومساجدهم

إن قرى بني سنوس (أعني هنا فقط قبائل بني سنوس (بلدية مغنية) الآنفة الذكر، وقبائل العزايل (بلدية سبدو المختلطة)، التي أسلمت على ما يبدو منذ قرون عديدة، تقدم لنا نموذجاً عما هو عليه الإسلام لدى بربر شمال إفريقيا. ولا يمكن بطبيعة الحال إنكار الأصل البربري لهؤلاء الجبليين الذين لا يزال الحديث بالبربرية يسمع لديهم في كثير من القرى(3).

نلاحظ هنا، كما هو الشأن لدى البربر المقيمين الآخرين والبربر الرحل أيضاً- وإن كان ذلك بصورة أخفّ عند هؤلاء الأخيرين- تلك النزعة القوية للتديّن(4)، التي جعلتهم يحتفظون، من خلال الإسلام، بل وحتى تحت غطائه أحياناً، بالمعتقدات القديمة لآبائهم، وببعض العبادات والطقوس الوثنية، مضيفين إلى ذلك كل ما ينطوي عليه الإسلام من حدة وصرامة في شعائره وفي التصوف الذي هو جوهر الزوايا الدينية الإسلامية في هذا البلد.

بالنسبة لمن لم تسمح له الفرصة برؤية هؤلاء السكان في موطنهم، فإن النصوص المقدمة من طرف إدمون ديستان في كتابه «دراسة عن لهجة بني سنوس البربرية» وكذلك في دراستيه المعنونتين «الناير لدى بني سنوس» و«أعياد وعادات موسمية لدى بني سنوس» الصادرتين في المجلة الإفريقية (1905 و1907)، سوف تمكّنه من تكوين فكرة عن المكانة الكبرى التي يحتلها كل من السحر والدين في حياة سكان بني سنوس.

على هذا الأساس، فإن الدين عند هؤلاء الجبليين، يجد تعبيره خاصة في الارتباط شديد العمق بالإسلام- وذلك حتى في القرى الناطقة بالبربرية- كما يجد تعبيره أيضاً في تقديس الأولياء. ويتموضع هذا التعبير المزدوج للشعور الديني ويتركز، من جهة، في المسجد ومن جهة أخرى، في الأضرحة العديدة التي تحيط بالقرية، كما ولو كانت حراساً أو حماة أو أصناماً.

لا يشكّل الضريح هنا أبداً جزءاً من مباني المسجد، كما نجد ذلك غالباً في أماكن أخرى، تلمسان مثلاً؛ إنه هنا بعيد عن المسجد، فلا يوشك تقديس الولي أن يلتبس مع عبادة اللّه.

هذه الأضرحة، التي تظللها أحياناً شجرة أو عدة أشجار، هي موضوع زيارات فردية دائمة للمؤمنين من رجال البلد ونسائه خصوصاً، وتُزار جماعياً مرة أو مرتين في السنة، فتقام بها الولائم، وتمارس بها الشعائر، مثل صلاة الاستقساء لطلب المطر.

وكما قلتُ، يوجد في كل قرية من قرى هذه المناطق، مسجد هو أحياناً مجرد مصلى بدون صومعة، وكل مسجد يضم عدداً معيناً من طلبة القرآن.

رغم خصاصتهم وفقرهم المدقع، فإن سكان هذه القرى يكرمون مساجدهم إكراماً عجيباً، فهم يجهدون أنفسهم لمنعها من السقوط، ويحمّلون أنفسهم اقتطاع جزء من مواردهم الزهيدة للمساهمة في الانفاق على القائمين على الدين: الإمام والمؤذن، وحتى الإنفاق على «الطلبة» الذين يحفظون

القرآن عن ظهر قلب. والمدهش هو ما يمكن مشاهدته في أوقات الصلوات الخمس اليومية من أفواج المؤمنين- الرجال فقط، لأن النساء لا يترددن على المساجد ولو كنّ عجائز- الذين يترددون على المساجد وهم يتمتمون (بعض الآيات) تحضيراً للصلاة.

وإذا كانت كل قرية تحتوي على مسجد للصلاة، فإنه لا يوجد في قبيلتي العزايل وبني سنوس إلاّ أربعة مساجد كبرى (جوامع) هي مساجد: تافسرة والثلاثا والخميس وبني عشير والتي تقام فيها خطبة الجمعة والصلاة، كما هو الحال في المدن. لذلك، فإن كثيراً من المصلين يتركون، يوم الجمعة، المساجد التي في قراهم، ويلتحقون بأقرب جامع لهم، لحضور صلاة الجمعة.

هذه هي الحال هنا منذ قرون، لم يعرف ارتباط هؤلاء البربر بالإسلام نقصاناً، بل إن هناك بعض المؤشرات التي تجعلنا نعتقد، خلافاً لذلك، أن هذا الارتباط بالإسلام يزداد، إن أمكنه ذلك، عاماً بعد عام.

عندما ذهبتُ إلى هذه القرى في أبريل 1920 لمعاينة المساجد، والتي يحتاج أغلبها إلى ترميمات عاجلة، ترجاني السكان وكبار الجماعة في كل مكان لكي أتوسط لهم لدى السلطات العمومية من أجل الحصول على مساعدة الدولة للقيام بشيء من أجل هذه المصليات التي هي عزيزة عليهم ومن أجل الدفع المنتظم لأجور الموظفين الدينيين. كان هؤلاء المسلمون يرغبون في القيام بالترميمات الضرورية للمساجد، وأن تُعطى لهم حصر لتغطية أرضية المساجد، وأن

يزوّد كل واحد من هذه المساجد الكبرى على الأقل بإمام ومؤذن معينين رسمياً ومأجورين، كما هو الحال بالنسبة لعمال السلك الديني في المدن، بل وحتى في سبدو، حيث بنت الدولة مسجداً، ليس معموراً مع ذلك، مثل مساجد العزايل وبني سنوس، وعيّنت فيه موظفين دينيين مدفوعي الأجور.

إن تحقيق هذه المطالب يبدو في نفس الوقت مشروعاً، وسياسة رشيدة لكسب السكان.

III- صيانة مساجد بني سنوس ودفع أجور عمالها

كما هو الحال في المغرب وتونس وكل البلاد الإسلامية، قبل الاحتلال الفرنسي، فإن المساجد الكبرى وبيوت الصلاة في بني سنوس والعزايل كان محافظاً عليها، وكان القائمون على شؤون الدين فيها (الأئمة والمؤذنون) يتقاضون أجورهم من مداخيل الأموال التابعة للمساجد والمسماة بالحبوس، والتي هي أنواع من الأموال المرصودة. ولأن هذه الأموال تعود ملكيتها إلى الله، فإنها غير قابلة للتصرف فيها. أما بالنسبة للمداخيل، فإنها مخصصة من طرف الواهب، بموجب عقد مكتوب، لصيانة هذا المبنى الديني أو ذاك، لدفع مقابل هذه الخدمة أو تلك، للإنفاق على هؤلاء الموظفين أو أولئك أو القائمين على الشعائر الدينية أو التعليم الديني، أو القائمين بعمل خيري أو مساعدة عمومية إلخ...

يوجد في الدول الإسلامية مصلحة خاصة بالحبوس مكلفة بصيانة المباني الدينية وكل المباني الأخرى التي هي محل مؤسسات خيرية، ومكلفة بدفع أجور العمال وإدارة مداخيل الحبوس.

يجب الاعتراف بأن هذه المصلحة التي يسهر على سيرها مسلمون، لم يكن يُعهد بها دائماً إلى موظفين منضبطين ونزهاء، وأنه عادة ما كانت أموال الحبوس تختلس من طرف الموظفين المسلمين الذي كانت توكل إليهم مهمة حفظها. لقد أمكنني ملاحظة هذا التصرف، مثلاً، بالنسبة لأموال الحبوس المخصصة لصيانة مدارس القرن الرابع عشر بفاس وبعض المساجد المغربية(5).

ومنذ استقرار الفرنسيين (في النص: استقرارنا) بالجزائر تكلفت الدولة الفرنسية بصيانة المباني الدينية ودفع أجور الموظفين التابعين لها وضمت، في المقابل، أموال الحبوس إلى أملاك الدولة.

من وجهة النظر هذه إذن، فإن مساجد بني سنوس التي هي كلها قديمة جداً، كما أسلفنا، والتي كانت تملك أوقافاً، هي اليوم مجباة عائداتها، إن ليس كلياً فجزئياً، من طرف مصالح أملاك الدولة، يجب أن تقع صيانتها على عاتق الدولة، كما يجب أن يتلقى الموظفون الدينيون أجرة رسمية.

قد يكون من العسير أن نجد اليوم، وبصورة دقيقة، كل الأوقاف التي كانت عائداتها مخصصة لمساجد العزايل وبني سنوس، قبل الاحتلال الفرنسي، ولكن لن تكون ثمة صعوبة كبرى في إيجاد نسبة كبيرة منها.

هناك جزء من هذه الأموال اسندت إدارتها إلى مصالح أملاك الدولة، وهي تعرضه للكراء بواسطة مناقصة عامة(6). وهو في الأساس عبارة عن حدائق وبساتين موجودة في نطاق القرية التي ينتمي إليها كل مسجد.

وهناك جزء آخر منها لم تتعرّف عليه الإدارة الفرنسية (في النص: إدارتنا) استأثر به الخواص من السكان الأصليين، في مراحل زمنية بعيدة نسبياً.

وهناك جزء آخر كذلك احتفظ به كحبوس، وهو، كما قيل لي، موضوع تحت إدارة جماعة القرية.

وأخيراً، هناك جزء رابع من هذه العقارات الحبوس (بالعزايل) منح لآغا قديم بتلمسان في شكل تبرع من طرف

السلطة العسكرية لمقاطعة تلمسان قبل 1850، بمناسبة قمع انتفاضات وقعت في هذه المناطق.

إن القيام بتحقيق إداري هو وحده الكفيل بتحديد حجم هذه العقارات الحبوس وإبراز أهميتها.

ومهما يكن، فإن سكان هذه المناطق يزعمون أن الأموال الحبوس العائدة ملكيتها إلى مساجدهم هي ذات أهمية بالغة(7)، وأن مساجدهم مهملة بصورة مطلقة.

من المحتمل جداً أن تكون في تصريحات هؤلاء الأهالي مبالغة بخصوص الأوقاف وأهميتها. أما فيما يتعلق بصيانة المساجد، فإن تصريحاتهم صحيحة، ولو لم يكن ذلك إلاّ نسبياً.

صحيح أنه منذ سنين، لم تقم الإدارة الفرنسية بأي ترميم من أجل صيانة مسجدي تافسرة والثلاثا (العزايل)(8)، غير أن هذه الحال لم تكن دائماً كذلك، وسكان الثلاثا أنفسهم يعترفون أن أعمالاً على جانب كبير من الأهمية قد أنجزت بمسجدهم، مضى على ذلك خمس وعشرون أو ثلاثون سنة، ولكنهم يجهلون المصلحة التي قامت بذلك.

وقبل أعوام تمّ ترميم مسجد الخميس من طرف مصالح الطرق والجسور لبلدية مغنية. لقد عوض سقف قاعة الصلاة الذي كان من خشب البلوط (الكريش) بسقف آخر من حنايا الآجر المرصوص، المرتكزة على عوارض من حديد في شكل T. وإذا كان السقف قد استفاد من ذلك، باكتساب صلابة أكبر، فإن هندسة المبنى القديمة والهامة لم تستفد من ذلك شيئاً.

واضح إذن، أن الإدارة الفرنسية قد تكلفت بصيانة هذه المباني الدينية. ولكن الأعمال الضرورية والترميمات اللازمة لم تتم بصورة منتظمة، وأنه من جهة أخرى، لا يمكن لمصلحة الجسور والطرق أن تستمر في القيام بهذا العمل المتعلق بترميم آثار إسلامية قديمة ذات قيمة هندسية وفنية، لأنه عمل يتجاوز اختصاص مصلحة الجسور والطرق (والدليل على ذلك ترميم سقف مسجد الخميس).

على هذا الأساس، يجدر القيام بما يجعل مساجد هذه المناطق تُصنّف كآثار تاريخية، وهي تبدو جديرة بذلك، وأن تُسند إلى المهندسين المعماريين التابعين لمصلحة الآثار التاريخية مهمة صيانتها وترميمها، كما هو الحال في باقي الجزائر.

ما هي مساجد العزايل (بلدية سبدو المختلطة) ومساجد بني سنوس (بلدية مغنية العسكرية) التي تستحق التصنيف بمصالح الآثار التاريخية؟ انطلاقاً من الدراسة الميدانية التي عكفتُ عليها بخصوص هذا الموضوع، أعتقد أني لا أستطيع الاحتفاظ إلاّ بأربعة: مسجد تافسرة، مسجد الثلاثا، مسجد الخميس، مسجد بني عشير، التي هي كلها مساجد – جوامع، ثلاثة منها مزودة بصوامع أنيقة، وأنها كلها من حيث هندستها الشديدة القدم (القرن السادس عشر على الأقل) تستحق أن تكون في عداد الآثار الإسلامية الجديرة بأن يحافظ عليها بكل عناية.

IV- دراسة مساجد بني سنوس الرئيسية

إن مساجد واديي بني سنوس هذه هي مساجد ريفية، لم تتلق زخرفة غنية بالجص المنحوت بالنقوش العربية حول المحاريب، والأعمدة الرخامية والتيجان الرخامية والخشب المنحوت أو المزين بالرسوم مثل مساجد المدن الكبرى، مساجد تلمسان مثلاً.

مع ذلك فإن زخرفتها الداخلية، ورغم كونها خشنة ومسحاء، غريبة أحياناً ومثيرة للاهتمام. إن قاعات الصلاة بها منقسمة إلى أجنحة تستند روافد سقوفها إلى ركائز من الآجر موصولة بعضها ببعض بأقواس حدوية الشكل على جانب معين من الأناقة.

إن السقوف التي هي من خشب البلوط والعرعر بسيطة جداً، وهي عموماً ذات جانبين مائلين لكل جناح، تستند إليها سطوح من القرميد.

إن الصوامع التي توجد في ثلاثة منها مربعة الزوايا ومبنية بالآجر. وهي في مثل أناقة صوامع المساجد المرينية والزيانية من حيث الأبعاد، إلاّ أنها لا تتوافر إلاّ على زخرفة على الجوانب محدودة جداً، وهي زخرفة بالآجر الناتىء، على قدر معين من البروز.

لا تتوافر هذه الصوامع على أي خزف مزخرف، والذي نعلم أنه نادر جداً في صوامع القرن الثالث عشر، والذي هو موزع بشكل موفق في صوامع القرن الرابع عشر، والذي أصبح يستعمل بشكل سيء في الصوامع ابتداء من القرن السادس عشر، حيث تقدم لنا مدينة فاس والمدن المغربية الأخرى الكثير من النماذج عن ذلك.

1- قرية تافسرة ومسجدها

يشير ليون الإفريقي ومارمول إلى تافسرة، ويخصص لها هذا الأخير اللمحة التالية: «إنها مدينة كبيرة، بناها أهل البلد، حسب ما يقوله الكتّاب. وهي واقعة في سهل على بعد خمسة فراسخ من تلمسان جهة المشرق، وكانت تُسمى قديماً استازيل(9)، وهي التي يحدد بطليموس موقعها ما بين خطي 13^0 و$20'$ طولاً و33^0 و$10'$ عرضاً. يكاد يكون كل سكانها حدادين، يملكون عدة مناجم حديد ويستغلونها. تحيط بها أراضي غنية بالحقول والمراعي، غير أن النشاط الرئيسي هو استخراج الحديد الذي يحمل لبيعه إلى تلمسان أو أماكن أخرى. والمدينة محاطة بأسوار قوية، شديدة الارتفاع، ولا يميّزها شيء آخر غير الذي ذكرت»(10).

لم يبق من سور هذه المدينة إلاّ بعض الأطراف النادرة لجدران من الملاط من نفس النوع الذي نجده في حصون تلمسان ومنصورة القديمة. وقد تسمح دراسات - لم أنجزها بعد- بتحديد الأثر الباقي في الأرض من سور تافسرة القديم، غير أن ذلك لن يفيد إلاّ في تحديد مساحة هذه المدينة في مرحلة كانت فيها أهم من الآن، وهكذا سوف يتبيّن لنا بلا شك، أن عبارة «مدينة كبيرة»، التي وصفها بها مرمول، أقل دقة من عبارة ليون الإفريقي التي تقول :«تافسرة مدينة صغيرة».

هي الآن قرية صغيرة من 684 نسمة و111 موقداً (1920)؛ لا يوجد بها حدادون كما كان عليه الحال في الماضي، وليس هناك أي استغلال لمناجم الحديد في ضواحي القرية. فسكانها

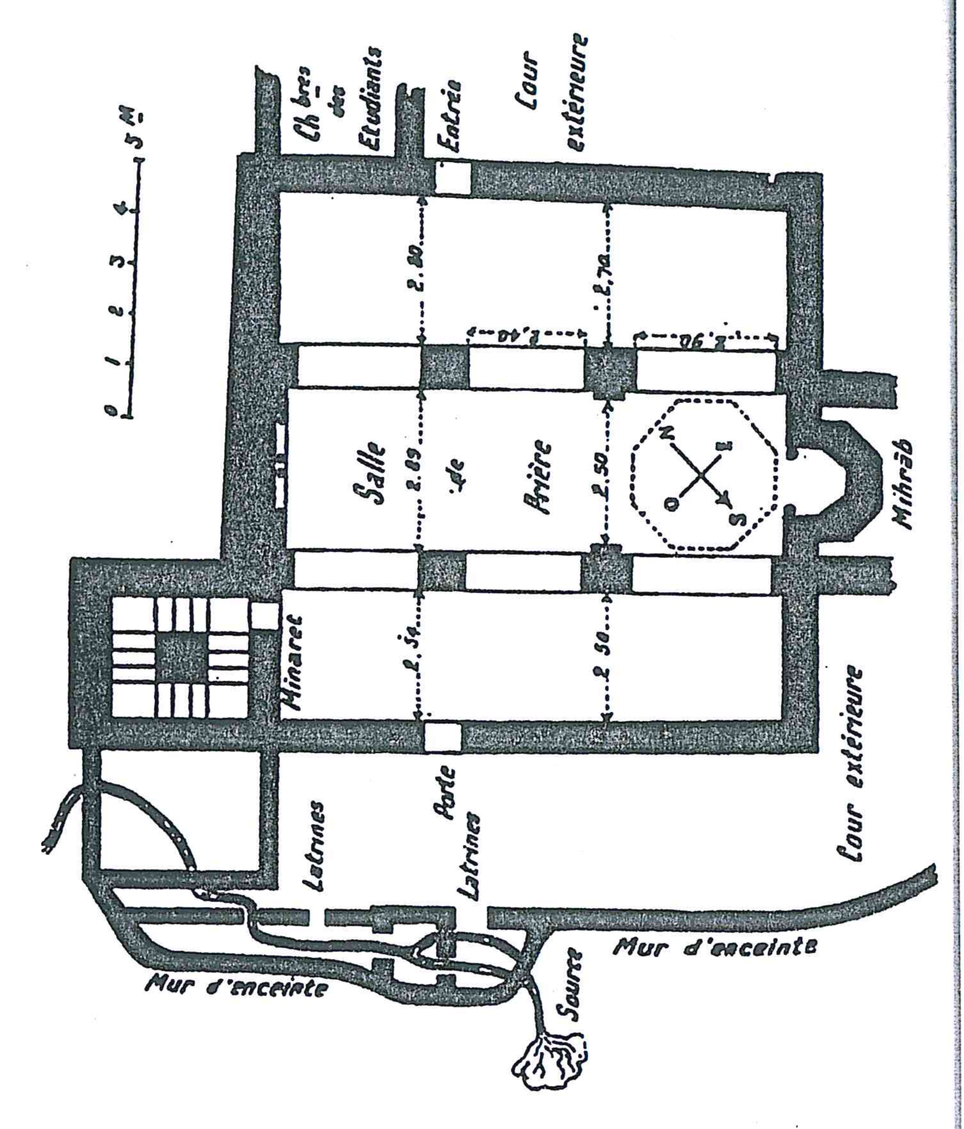
اليوم يعيشون من حقول الزرع الصغيرة ومن بساتين البقول والخضار ومن أشجار الزيتون الجميلة التي تتاخم القرية. وتُسقى هذه الحقول بمياه نبعين غزيرين، يوجد أحدهما بجانب المسجد (أنظر مخطط المسجد شكل 1).

في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية وقريباً جداً من القرية توجد المقابر وأضرحة الأولياء، حماة الأحياء والأموات.

وككل ديار هذه المناطق، فإن ديار تافسرة المجمعة حول المسجد، تغطيها سطوح مستوية من الطين المدقوق الموضوع على سقوف روافدها من خشب البلوط. ولأن صلصال البلد الذي يحتوي عليه ملاط السطوح وطلاء الجدران غني جداً بالحديد والمغنزيوم، فإن لون هذه القرى يميل إلى الأغبر الضارب إلى البنفسجي.

في الجهة الغربية للقرية، قريباً من المنازل، وإلى جانب الحقول، يقوم المسجد الذي مازال السكان يسمونه مسجد سيدي عبد الله بن جعفر(11). ويروون أن هذا المسجد وغيره من المباني الدينية القائمة في وادي تافنة، قد أنشىء بأمر من عبد الله بن جعفر أحد قادة الجيوش العربية في زمن عقبة بن نافع، الذي غزا هذه المناطق وأرسى بها قواعد الإسلام. ويزعمون، بناء على ذلك، أن اعتناق بلدهم الإسلام سابق لقدوم إدريس الأول إلى تلمسان والذيْ أسس، كما هو معلوم، أول مسجد بالمدينة: (أنظر الشكل 1 الذي يبيّن مخطط المسجد).

غير أنه لا يمكن الاعتماد طبعاً على مثل هذه الأساطير



شكل 1 – تافسرة (الجزائر)

مخطط المسجد

لتحديد تاريخ تأسيس مسجد تافسرة. وبما أنه لا النقوش- فهي غير موجودة في هذا الأثر- ولا النصوص التاريخية متوافرة، فنستعين بها على حل هذه المسألة، فإنه يبقى من الصعب تحديد المرحلة التاريخية التي تأسس فيها المسجد.

يتكوّن مسجد تافسرة من قاعة للصلاة مربعة الشكل، تحاذيها من الخارج في الزاوية الجنوبية-الغربية صومعة مربعة الزوايا، ملتصقة بالجدار الموازي لجدار المحراب.

عند المدخل الشرقي الذي يتصل بفناء خارجي يحيط به سور غير منتظم ارتفاعه متران تقريباً، توجد غرف طلبة القرآن. ومن الجهة الأخرى لقاعات الصلاة (الجهة الغربية) توجد قاعات الوضوء التي تتصل هي الأخرى بالفناء (أنظر الشكل 1).

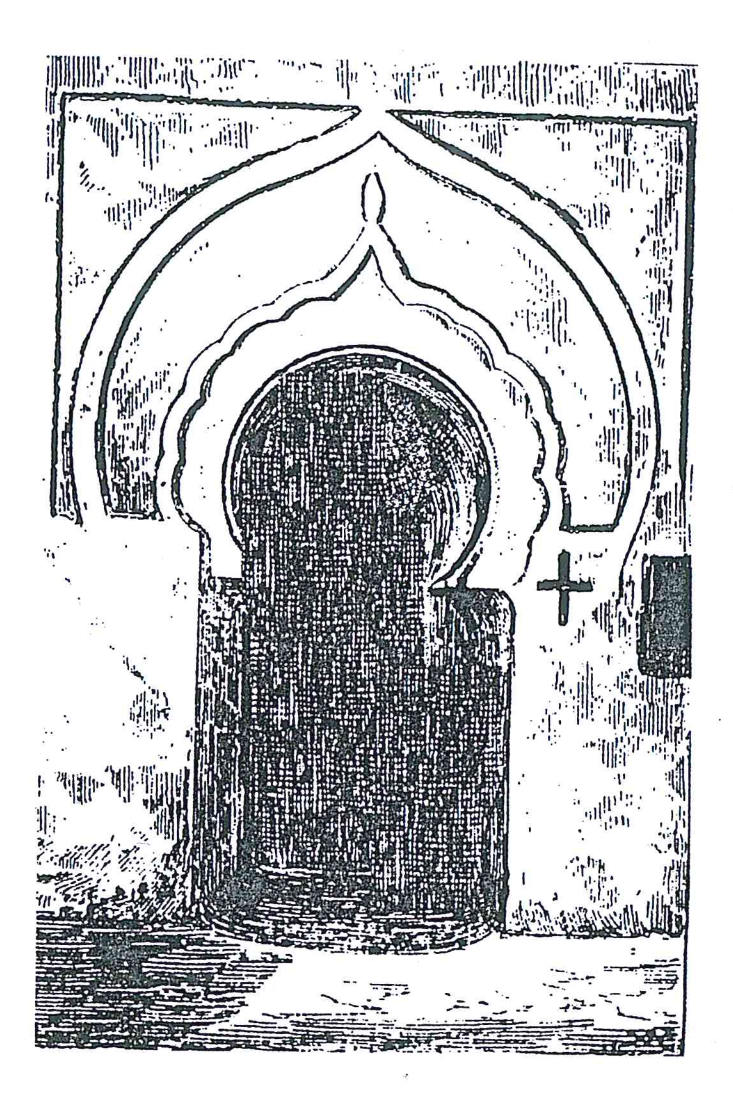
إن قاعة الصلاة التي ندخل إليها من باب متصل بالفناء، فتح في جدار الجهة الشرقية، قاعة مربعة الشكل، بصورة محسوسة، ضلعها 10 أمتار. وهي تتكوّن من ثلاثة أجنحة يفصل بينها صفان من الجدران المقوسة، في كل واحد منهما ثلاثة أقواس حدوية الشكل قريبة من النصف-دائرية. هذه الجدران المقوسة المتعامدة مع جدار المحراب تستند إلى ركائز مستطيلة عرضها يوجد في اتجاه الجدران المقوسة ويساوي 0,80 م وطولها متعامد معها ويساوي متراً واحداً.

ولكل جناح سقف من أخشاب البلوط والعرعر، مجهزة بقطع خشبية مثبتة للقرميد، ذو جانبين مائلين يشكل التقاؤهما زاوية قدرها 45^0 تقريباً، يبدآن من خطها المركزي ويتجهان نحو الجناح. في أطراف كل جانب من السقف وبين

بعدي الجانبين توجد عوارض رئيسية بأوتاد تثبيت من نفس الخشب، يستند إليها الهيكل الخشبي الذي حُمّل عوارض خشبية أفقية. ويقوم هذا الهيكل على افريز موحد من الآجر المشكل نتوءاً سمكه يتراوح بين 0,80 و0,10 م عن مستوى تأطير أقواس الجدران المقوسة.

الركائز المربعة الشكل مبنية بالآجر(12)، تساوي المسافة فيما بينها، وبينها وبين جدران القاعة، في اتجاه الجدران المقوسة 2,40 م تقريباً، ويتراوح في اتجاه عرض الأجنحة بين 2,50 و2,90م. وينقسم الوجه الداخلي لكل ركيزة، في اتجاه الجناح المركزي، وعلى علو 1,80 م عن مستوى أرضية القاعة، إلى 3 أجزاء متساوية تقريباً، عرض كل واحد منها حوالي 0,26 م. يمتد الجزء الأوسط عمودياً في شكل حزام مستطيل، ويبرز عن الجزئين الآخرين اللصيقين به بنتوء سمكه 0,09 م. هذا الحزام العمودي الناتىء والافريز الأفقي الذي يرتكز عليه السقف والمماثل له في النتوء يشكلان تأطير أقواس الجدران المقوسة.

تتقدم المحراب قبّة تستند إلى الأضلاع الثمانية المتفاوتة الطول لمضلع (الأضلاع الأربعة التي تعلو الركنيات أطول من الأضلاع الأخرى). الكتيفات الناتئة على مستوى زوايا مربع الافريز القاعدي موحدة السطح مثل الوجه الداخلي للقبة نفسه، باستثناء بعض الزخارف النادرة الناتئة داخل مستطيلات الجوانب بين الركنيات. تبعد قمة القبة بـ7 أمتار عن مستوى الأرض، في حين لا يوجد عنق القبة الداخلي إلاّ على بعد 5 أمتار من مستوى الأرض فقط.



شكل 2–تافسرة (الجزائر)

محراب المسجد

يغطي القبة من الخارج سطح من القرميد الأحمر في شكل هرم رباعي الجوانب.

إن المحراب الذي يوجد في أقصى الجناح المركزي موجه نحو الناحية الشرقية–الجنوبية–الشرقية 40 درجة شرق الخط الشمالي–الجنوبي، أي بصورة أقل دقة مما هو عليه الحال في محاريب مساجد تلمسان الموجهة كلها أكثر نحو الجنوب. عرض مدخل المحراب 10,7 متراً، بين عمودين خشنين مبنيين بالآجر مبيضين بالجير. كل عمود ارتفاعه 1,40 م وقطره 0,20 م، يظهر عليه، بدلاً من تاج العمود، اتساع في شكل هرم قاعدته الكبرى إلى الأعلى. يرتكز على عمودي مدخل المحراب قوس حدوي الشكل نصف دائري مضغوط شعاعه الأفقي 1,20 م وشعاعه العمودي 1,10م. هذا القوس مؤطر على التوالي:

1– بقوس مفصص ينتهي في قمته بزاوية يتوّجها ما يشبه رأس الحربة الحديدي. ويبرز حزام هذا القوس عن مستوى الجدار بنتوء سمكه 0,03 م.

2– يقع هذا القوس داخل حزام في شكل قوس من نفس النوع، ولكنه غير مفصص، ويبرز عن مستوى الجدار بنتوء من نفس السُّمك. يرتكز هذا القوس الثاني على القاعدة الأفقية لتأطير مستطيل الشكل يبرز عن مستوى الجدار بنتوء سُمكه 0,04 م.

وكما تبيّن ذلك الصورة (في الشكل 2)، فإنه في جدار تأطير قوس المحراب، تظهر الركنيات وأحزمة الأقواس وكذلك الأحزمة المستطيلة الشكل موحدة وبدون زخرفة.

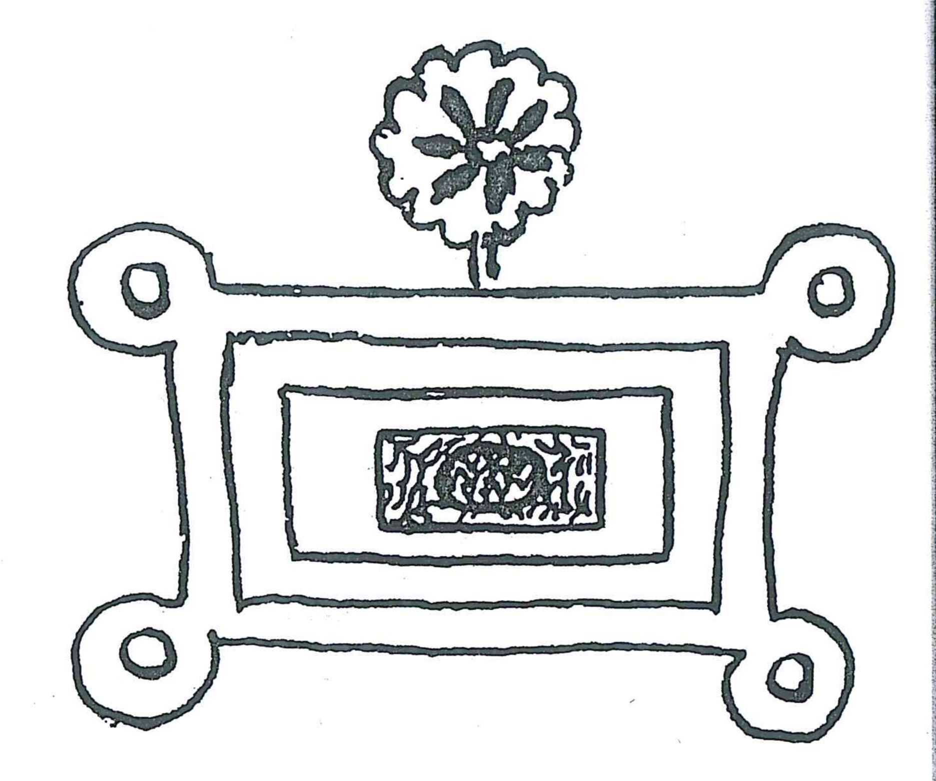
في الجهة اليمنى للمحراب وعلى مستوى بدء القوس، فإن الجدار مزيّن بزخرفة يمثلها خطان محفوران، متقاطعان في زاوية مستقيمة، مشكلين بذلك صليباً متساوي الفروع الأربعة. ولعل ما ينطوي عليه هذا الصليب هو ذلك الرمز السحري، تبسيط اليد الحامية، الذي يكثر في الزخارف البربرية(13)، وعلى يمين هذا الرسم المنقوش، توجد حفرة مستطيلة الشكل بـ0,30 x 0,50 هي عبارة عن كوة للقناديل (أو الشموع) ولحفظ الأشياء.

يتشكل باطن المحراب من قبة لا تقل خشونة عن العمودين اللذين يستند إليهما قوس مدخله. وهي مزينة بأحزمة ناتئة يتراوح سمكها بين 0,08 و0,10 م، وتمتد من قمة القبة نحو القاعدة.

عند النظر إلى أعلى، نلاحظ كذلك وجود عدة عناصر زخرفية بارزة من مادة الجص على إثنين من الأجزاء الجدارية المؤطرة التي تستند إليها القبة التي تتقدم المحراب وبين الركنيات.

إنها أولاً سلسلتا قويسات متشابهة ومتجاورة شكلها حدوي نصف دائري بدعائم تمثلها عميدات بدون تيجان، مماثلة جداً لتلك التي نجدها في زخرفة القرن الرابع عشر بفاس وتلمسان(14)، وخصوصاً في تزيين شواهد القبور. يفصل بين سلسلتي القويسات عنصر زخرفي في شكل V ناتىء يزيّن المأطورات كلها تقريباً.

ويحتل الزخرف الآخر المأطورة المجاورة. وهو زمرة من أربعة مستطيلات يحتوي بعضها الآخر، قواعدها الأطول



شكل 3–تافسرة (الجزائر)

زخرف ناتئ قرب محراب المسجد

أفقية. المستطيل الذي يحتل الوسط، وهو الأصغر، مزيّن بتظليل من الحزات المقوسة، تبدو بشكل ضبابي على أنها سعيفات، وفي مركزه دائرة ناتئة مزخرفة بنفس الشكل وتظهر كنقطة كبيرة. وهناك دويرات أخرى تنتهي بها زوايا المستطيل الأكبر الخارجي، مما يعطي تقريباً الرسم الممثل بالشكل 3.

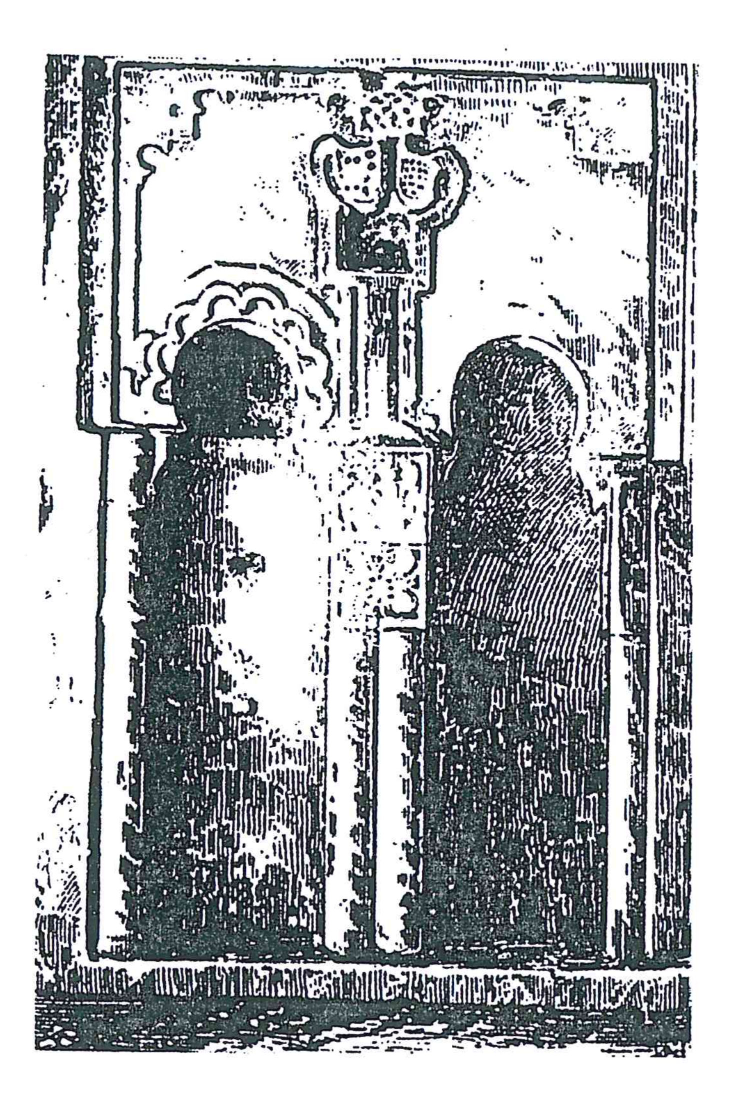
لا مجال للشك في أن هذا الزخرف الشائع في فنون التزيين البربرية، حيث يكتسي قيمة سحرية(15)، له هنا نفس القيمة.

وهناك رمز آخر تمثله بلا شك العجلة المشكلة من دائرة مفصصة بأشعتها السبع الناتئة والموضوعة على القاعدة الطولية العليا للمستطيل الأول الخارجي.

معلوم أنه عادة ما يكون المحراب وإطاره، في المساجد المغربية، هما جزآ المبنى الأكثر تزييناً، وهنا يوجد جزء آخر تجلت فيه الرغبة في التزيين. إنه جزء الجدار الموازي لجدار المحراب والذي يقابل مباشرة هذا الأخير.

مجموع هذا التزيين ممثل هنا بالشكل 4. إنه عبارة عن أربعة أعمدة يتراوح قطرها بين 0,18 و0,20 م يستند إليهما طاقان متجاوران يمثلان المدخل إلى كوتين محفورتين في الجدار بعمق يساوي 0,50 م تقريباً فوق عتبة علوها 0,12 م.

هذه الأعمدة أسطوانية الشكل على ارتفاع 1,40 م ورباعية المقطع على باقي الارتفاع، أي 0,80 م بالنسبة لعمودي الطرفين. ويحمل العمودان المركزيان إطاراً مستطيلاً ارتفاعه 0,80 م وعرضه 0,45 م، يتضمن زخرفين



شكل 4 –تافسرة (الجزائر)

الجدار المقابل للمحراب

من الجص متراكبين ويحيط بكل واحد منهما إطار مربع. يمثل الزخرف الأسفل، على وجه التقريب، وردة بأربع تويجيات حول دويرة مركزية. إنه كذلك المربع السحري ذي النقط الأربعة مع نقطة خامسة في الوسط. ويمثل زخرف الأعلى سعيفات غير واضحة بسيطة أو مزدوجة على درجة ما من التشابك.

يؤطر الطاقين مستطيل عرضه 2,40 م وارتفاعه 1,50 م. يشغل وسط هذا المأطورة، بين قوسي الطاقين وعلى ارتفاع المستطيل كله، عنصر زخرفي بارز من الصعب جداً فهم دلالاته.

وتجدر الإشارة إلى أن الجهة اليسرى للمأطورة هي وحدها التي لقيت تزييناً كاملاً، وأن الجهة اليمنى لا تحتوى على أي تزيين. ويزيّن طاق الجهة اليسرى قوس مفصص ناتىء رسم على مأطورة الطاق، يؤطره هو الآخر قوس موحد ناتىء أيضاً، وهذان القوسان كلاهما متراكزان.

وقد احتوت المأطورة المستطيلة هي الأخرى على زخرف ناتىء داخل الجوانب، وهذا الزخرف الذي هو كامل على الجهة اليسرى، لا يوجد إلاّ في أعلى مستطيل الجهة اليمنى.

إن اللافت للانتباه في هذه الزخارف الناتئة أو المنقوشة، سواء ما وجد منها في تأطير المحراب أو في الجدار المقابل له، هو أنه لا يوجد لها مثيل في زخارف مساجد المدن؛ فهي ليست خشنة فحسب، بل إنها بربرية خالصة وتنطوي بالتأكيد على رموز سحرية غالباً ما نجدها في فن التزيين عند البربر.

يلاحظ كذلك أن هناك تفاوتاً في الأبعاد، يظهر أولاً في القياسات المقدمة في مخططنا. ويمكننا أن نضيف أن التصميم المربع الذي تقوم عليه القبة التي تتقدم المحراب هو مستطيل وليس مربعاً، بما أن طول أضلاعه هي على التوالي: 2,90م و3,23م.

في قاعة الصلاة هذه، يوجد بابان فتحا في جداريها الشرقي والغربي، وباب ثالث يؤدي إلى الصومعة فتح في جدار الجهة الشمالية.

على يمين المحراب يوجد سلّم من الخشب عادي جداً، يمثل المنبر الذي يستعمل لخطبة الجمعة.

الصومعة مبنية بالآجر، علوها 12 م وعرضها الخارجي 3,30 م (لكل جانب). والشرفة التي لا تقع إلاّ على ارتفاع 10,85م عن مستوى الأرض، يحيط بها جدار صغير علوه 1,15م، ويتوّجه شرافات (زوائد زخرفية) علوها 0,55 م وقاعدتها 0,90م؛ ويعلو (الشرفة) بناء صغير قاعدته مربعة الشكل عرضه الخارجي 1,20م وعلوه 4م، يمثل البناء الذي يحتوي على غرفة المؤذن في مساجد المدن، غير أنه لا توجد هنا أية غرفة.

ثمة باب فتح في الجدار الشمالي لقاعة الصلاة يؤدي إلى السلم الموصل إلى قمة الصومعة.

ليس على الجوانب الخارجية للصومعة فوق مستوى ارتفاع جدران قاعة الصلاة (أي على ارتفاع 5 أمتار عن مستوى الأرض)، أية زخرفة، كما لا توجد أية زخرفة في أسفل الصومعة وإلى غاية ارتفاع مترين عن مستوى الأرض.

غير أنه يلاحظ على الجوانب الثلاثة الحرة لهذه الصومعة (الجانب الرابع ملتصق بالجدار الشمالي لقاعة الصلاة) وجود مأطورة مزخرفة بسلسلة أقواس مفصصة، من الآجر الناتىء، مثبتة داخل إطار مستطيل غائر بعمق 0,03م أو 0,04م عن مستوى الجدار الذي يشكّل له تأطيراً.

هناك مجموعتان من المباني الملحقة بالمسجد هي: سكنات طلبة القرآن وقاعات الوضوء.

سكنات طلبة القرآن مبنية عند مدخل المسجد من الجهة الشرقية. وهي متصلة بفناء خارجي يحيط من ثلاث جهات بقاعة الصلاة، شرقاً وغرباً وجنوباً، يحده عن الحقول والقرية جدار علوه 1,60م إلى 2 م وطوله 56,50 متراً تقريباً.

هذه الغرف المماثلة في بنائها لغرف منازل القرية مغطاة بسطوح مستوية، وقد بنيت بعد مباني المسجد الأخرى بمدة طويلة. وهي تتكون من بناية بطابق أرضي ذي جناحين يتلقيان في زاوية قائمة. يقوم أحد الجناحين على تصميم قاعدي مستطيل طوله الخارجي 12 م وعرضه الداخلي متراوح بين 2,20 و2,45م. يستند بعرضه الضيق تعامدياً على الجدار الشرقي لقاعة الصلاة ويحتوي على غرفتين يفصل بينهما جدار حاجز، ولكل واحدة منهما باب يتصل بالفناء. أما الجناح الثاني فيستند إلى الطرف الشرقي للجناح الأول ويمتد موازياً الجدار الشرقي للمسجد على طول قدره 6,50 متراً. وهو لا يتكون إلاّ من غرفة واحدة مستطيلة الشكل عرضها الداخلي يتراوح بين 2,30 و2,40م، يقسمها إلى مقصورتين جدار حاجز مجهز بباب للاتصال. أما الدخول

إلى هذه السكنات فيتم عن طريق باب مفتوح على الفناء.

هناك باب للدخول من الخارج، من أحد شوارع القرية يتصل بالفناء الخارجي، يفصل بين الطرف الجنوبي لهذا السكن الطلابي الأخير وبين سور المسجد؛ ولا يوجد أي باب آخر للدخول.

توجد قاعات الوضوء في الناحية الغربية لقاعة الصلاة، ويفصلها عنها الفناء الخارجي. إنها مكوّنة أساساً من سقوف مقوسة، من الآجر، من نوع شديد القدم، تستندُ إلى ركائز من الآجر. وهناك مجرى للمياه مبني بالآجر، وهو مكشوف تصبّ فيه تحت هذه السقوف مياه نبع مجاور تذهب بعد ذلك لري الحقول. قاعات الوضوء مغطاة بسطح مستوٍ.

وخلافاً لذلك، فإن قاعة الصلاة يغطيها قرميد أحمر مثل قاعة الصلاة في مسجد تلمسان الكبير (القرن الثاني عشر) أو قاعة الصلاة في المساجد المرينية، مسجد سيدي بومدين، ومسجد سيدي الحلوي (القرن الرابع عشر). وكما هو الحال بالنسبة لهذه المساجد، نلاحظ من الخارج، السطوح بجانبين مائلين لكل واحد من الأجنحة الثلاثة. ويشرف على الجناح المركزي من جهة الجنوب سطح هرمي رباعي الجوانب، هو سطح القبة التي تتقدم المحراب، حيث يكشف بروزه الخارجي عن مبنى صغير يتجاوز جدار الجهة الجنوبية. وهناك بعض النوافذ الصغيرة الضيّقة والعالية، شبيهة بكوى رمي القذائف (في الحصون) تدخل نور النهار من الجهة الجنوبية إلى قاعة الصلاة.

باختصار يمثل مسجد تافسرة، بحكم قاعة الصلاة التي يمتلكها، وصومعته وقاعات الوضوء التي يحتويها، مجموعة من المباني القديمة، وهو جدير جداً بأن يحافظ عليه. في غياب معلومات دقيقة يقدمها لنا علم النقوش أو التاريخ، يكاد يبدو مستحيلاً أن نحدد تاريخاً أكيداً لتأسيس هذه المباني.

يتعلق الأمر هنا بمسجد ريفي أو بمسجد مدينة صغيرة على أكثر تقدير، وفي كل حال هو مسجد مركز سكني، أكيد أنه كان في السابق أهم مما هو عليه اليوم، وكان محاطاً بسور محصن بقاياه من مادة طينية مماثلة لتلك التي بُنيت بها أسوار المدن في هذا البلد في القرون الوسطى. إن السور الذي لا شك أنه لم يعد هناك سبب لوجوده قد زال منذ قرون. أما المسجد الذي لا غنى عنه للعبادة باستمرار، فإنه ما زال قائماً إلى الآن.

وإذا كانت العناصر الزخرفية الشديدة الخشونة الموجودة على الجدران داخل قاعة الصلاة قد مكنتنا من إيجاد رموز سحرية عزيزة على البربر، فإنها لم تقدم لنا أي عنصر، اللهم إلاّ في سلاسل القويسات، لاقتراح تاريخ ولو تقريبي للمبنى، وأقل منها هندسة المبنى التي لم تقدم لنا أي عنصر لذلك.

مع ذلك فإن المظهر العام لهذه المباني، وأبعاد الصومعة، وإن كانت خشنة بعض الشيء والسقوف المقوسة لقاعات الوضوء نفسها، تجعلنا نفكر في أن نعزو تشييد هذه المباني إلى القرن الرابع عشر كأقرب تاريخ .

2- قرية الثلاثا ومسجدها

يبدو أن هذه القرية لم تكن أبداً محاطة بأسوار مثل تافسرة رغم أنها اليوم أكثر أهمية منها. فسكان الثلاثا يبلغون 700 نسمة لقاء 145 موقداً (1920)، أي ما يعادل 4,82 نسمة لكل دار.

القرية مبنية على أرض منحدرة ومنقسمة إلى حيين: حين المغانين، وحي الجعالين؛ كما تضم جالية يهودية صغيرة تعيش مثل السكان المسلمين تماماً، حول كنيس هو عبارة عن حجرة فقيرة منخفضة ووسخة في دار يهودية. ليس لهؤلاء اليهود أراضي ولا حدائق، فهم يمارسون بعض الأعمال التجارية الصغيرة ويصنع الكثير منهم أو يرقعون برادع الحمير والبغال، وهي صناعة حكر عليهم في هذا البلد.

أما بالنسبة للمسلمين، فإنهم يعيشون من غلال حقولهم المجاورة للقرى، والتي تسقى بماء نبعين غزيرين أحدهما، وهو الأهم، يقع في جنوب قرية الثلاثا. في الشمال-الشرقي للقرية يوجد ضريح الجد الأول الذي يُطلق اسمه على سكان حي المغانين، وهو سيدي علي بن مغنين، الذي تنتشر حول مزاره المقبرة. هناك بعض الأولياء الآخرين الذين توجد أضرحتهم بالقرب من القرية والذين هم محل زيارات تبركية من طرف السكان.

غير أن الإسلام متجذر منذ زمن بعيد، كما هو الأمر في تافسرة، في هذا المقر البربري الذي تبنّى العربية لغة، واعتنق الإسلام عقيدة، فمنذ قرون عديدة وأهل القرية يداومون على اعتياد المسجد الذي يحفظ فيه، طوال السنة،

طلبة عديدون، قادمين من بعيد أحياناً، القرآن عن ظهر قلب على يد «طالب» (معلم للقرآن).

بالقرب جداً من الثلاثا وعلى بعد أقل من كيلومتر غرباً، توجد قرية أخرى هي أيضاً تابعة لمسجد الثلاثا من حيث العبادة والذي يعتاده سكانها لأنه لا يوجد لديهم مسجد-جامع: إنها قرية زهرا. يبلغ عدد سكانها 480 نسمة لقاء 87 موقداً (1920)، أي ما يعادل 5,5 نسمة لكل دار. كما تملك حقولاً وبساتين جميلة جداً، تروى بنبع غزير يقع غير بعيد من القصر الريفي الذي شيّده آغا قديم ينتمي إلى هذه المناطق والذي هو مسكون اليوم من طرف عائلة القايد خبيشات التي منها يعيَّن قياد القبيلتين العزايل وبني سنوس.

إن قريتي الثلاثا وزهرا هاتين لابد أن تكونا قد سكنتا منذ قرون بعيدة من طرف هؤلاء البربر، وذلك بفضل الأراضي الخصبة للهضبة الصغيرة التي توجدان بها على بعد بعض المئات من الأمتار عن ضفة نهر تافنة اليسرى، وبفضل المنابع الغزيرة التي توفر الماء الضروري لهم ولقطعانهم من ضأن وماعز وأبقار، ولحقولهم من أشجار زيتون وثمار ولبساتين البقول والخضار.

في وقت كان فيه الأمن أقلّ مما هو عليه الآن، لزم على سكان هذه القرى حماية أنفسهم من هجوم الأعداء ولزم عليهم لهذا الغرض حراسة الوادي. فلقد بنوا على رأس ربوة في الناحية الجنوبية بين القريتين، وعلى بعد أقلّ من كيلومتر من كل منهما، نوعاً من الملجأ المحصن الذي لا يزال

باقياً منه، في نفس قمة هذه الربوة المشكلة من كتلة من الغرانيت، بقايا أسوار منخفضة مبنية بحجارة منحوتة بصورة خشنة إلى حد ما، ومرصوصة بدون أي ملاط. إن السكان الحاليين، زيادة على كونهم غير قادرين على إنجاز أبنية بهذا النوع من المواد، يجهلون حتى أن يكون أجدادهم البربر هم الذين بنوا هذا السور، وينسبونه إلى الرومان؛ إنهم يطلقون على هذه الربوة اسم «كدية الروم».

أما منازل هذين القريتين، فهي مثل منازل تافسرة والقرى الأخرى لهذه المناطق، مبنية بالحجارة وملاط الطين المستخرج محلياً، وهي دائماً مغطاة بسطوح مستوية من الطين المدقوق. مداخل الغرف عبارة عن أبواب مجهزة بأقواس قوطية أو أقواس قريبة إلى حد ما من الأقواس نصف الدائرية يحيط بها إطار مستطيل.

مسجد الثلاثا(16) مبني في الجزء الأسفل من القرية ناحية الشمال. فإذا نظرنا إليه من ناحية الغرب تجلى بصومعته العالية المتوجة بشرافات، والتي تشرف على قاعة الصلاة المكوّنة من أجنحة مغطاة بالقرميد. تحتل الصومعة الزاوية الشمالية-الشرقية للمبنى.

المخطط (شكل 5) المقدم هنا يمكن من إدراك توزيع الأقسام المختلفة للمبنى وأبعاد كل قسم منها.

يقع المدخل الرئيسي للمسجد في الجهة الشمالية منه، ويتصل بفناء خارجي صغير يغطيه كرم معترش، حيث يمكث طلبة القرآن الذين يسكنون حجرة يتقدمها رواق مسقوف، تقع في الجهة الغربية للفناء. وتوجد متصلة بنفس الفناء

مقابل حجرة الطلبة هذه، حجرة أخرى تقع في الجزء الأسفل للصومعة ويستعملونها مطبخاً.

وأخيراً يوجد في الزاوية الشمالية-الشرقية لنفس الفناء سلّم بسبع درجات يؤدي إلى قاعات الوضوء وإلى الساقية (المستعملة لذلك) والتي يجري فيها ماء نبع يوجد هناك.

شكل قاعة الصلاة رباعي متفاوت الأبعاد؛ فهي داخلياً ذات قياس 11,10 م من الشمال إلى الجنوب، ومقاس عرضها من الوسط هو 12,65 متراً.

إنها قاعة مشكلة من ثلاثة أجنحة متعامدة مع جدار المحراب، ولها جناح رابع يقع شرق الأجنحة السابقة بين الصومعة المحتواة في قاعة الصلاة (الزاوية الشمالية-الشرقية) وبين جدار المحراب. ليس لسطح هذا الجناح الأخير إلاّ جانب واحد مائل نحو الجهة الشرقية، بينما تتكوّن سطوح الأجنحة الأخرى من جانبين مائلين، مثل أجنحة مسجد تافسرة، هيكلها من عوارض وقطع تثبيت من خشب البلوط والعرعر هي الأخرى. وكما هو مبيّن في المخطط، فإن عرض الجناح المركزي هو 3,40 م، في حين لا يتجاوز عرضا الجناحين الجانبيين 2,30 م لكل واحد منهما.

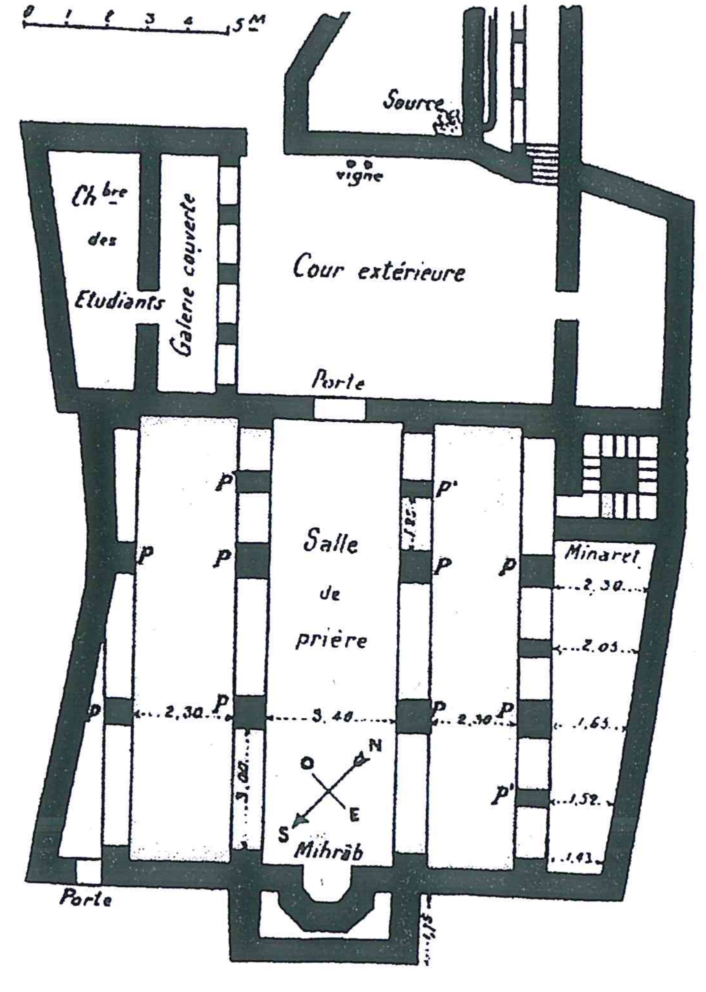
تستند الأقواس الثلاثة النصف-دائرية لكل صف من الجدران المقوسة (الفاصلة بين الأجنحة) ركائز مستطيلة، مرموز إليها بحرف P في المخطط، ارتفاعها 1,60م وسمكها متراوح بين 0,60 و0,70 م. للأجنحة الثلاثة الرئيسية أربعة سلاسل من الركائز، وتلتصق في كل سلسلة ركائز الأطراف

بالجدران. كذلك الأمر بالنسبة لإحدى ركائز الجهة الغربية، فإنها تلتصق بجدار هذه الجهة، بسبب عدم انتظامه.

تبلغ المسافة بين الركائز في كل واحدة من سلاسل الجدران المقوسة، وبشكل محسوس، ثلاثة أمتار، والأقواس المتسلسلة التي توصل بينها مثنى مثنى تأخذ شكلاً حدوياً نصف-دائري، ويبلغ شعاع كل واحد منها 2,45 م عمودياً، ويبلغ سُمك السلسلة المقوسة (من الداخل) 0,50 م.

يستند القوس إلى الركيزتين، مرتداً عن الوجوه الخارجية لكل ركيزة بتقلص قدره 0,06 م إلى 0,07 م. ويمثل كل وجه من وجوه الركائز، جهة الأجنحة، بين كل قوسين متتابعين، حزاماً عمودياً ناتئاً يبعد عن مستوى الأرض بـ1,60 م، مثل ارتفاع الركيزة نفسها. ولحزام تأطير القوس هذا عرض قدره 0,38 م، ويمتد نحو الأعلى بارتفاع قدره 3,80 م، فيتصل بالحزام الأفقي العلوي الذي هو بنفس النتوء والذي يكمل التأطير المستطيل للجدار المقوس.

يبيّن مخطط قاعة الصلاة لهذا المسجد النقط الأربعة P للركائز الإضافية الموضوعة هنا في وقت لاحق لبناء المسجد، كما لو كانت الغاية منها تمتين بعض الأروقة المقوسة. وحسب القايد سي محمد خبيشات، فإن هذه الترميمات الكبرى قد قامت بها السلطة العسكرية حوالي 1875. وليس لهذه الركائز P سوى 0,50م عرضاً في اتجاه الجدار المقوس والذي تقسمه إلى جزئين بحيث ينقسم القوس الأولي النصف-دائري إلى قوسين مكسوري الرأس ضيقين جداً شعاعاهما العموديان متساويان.



شكل 5 - الثلاثا (الجزائر)

مخطط المسجد

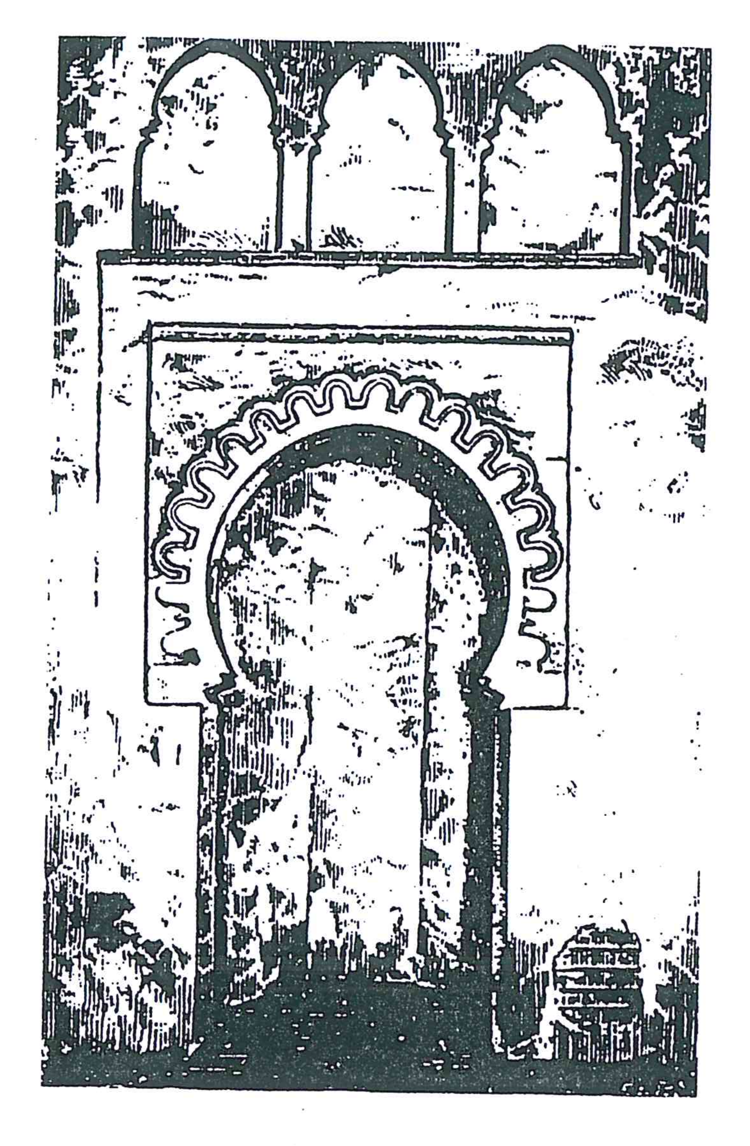
تستند إلى هذه الجدران المقوسة المختلفة سقوف الأجنحة التي هي مماثلة لسقوف أجنحة مسجد تافسرة، ومن نفس الخشب الذي يشكّلها. وفي حين أن لكل جناح رئيسي سطحاً بجانبين مائلين، فإن سطح الجناح الإضافي في الجهة الشرقية ليس له إلاّ جانب واحد مائل نحو الخارج. (أنظر الشكل 5).

الجناح المركزي أوسع (فعرضه 3,40م) من الجناحين المجاورين له (إذ عرض كل واحد منهما 2,30م)؛ يوجد في طرفه الشمالي الباب الرئيسي للدخول إلى قاعة الصلاة؛ أما طرفه الجنوبي فإنه ينتهي بالمحراب.

توجد ثلاثة أبواب في جدران قاعة الصلاة هذه: باب الدخول الرئيسي الذي يوجد في جدار الجهة الشمالية، وهو بعرض 1,20م وارتفاعه 2,45م؛ وفي جدار الجهة الجنوبية غير بعيد عن الزاوية الجنوبية-الغربية يوجد باب صغير عرضه 0,70م وارتفاعه 1,13م، وهو باب مشرف على حقول؛ وباب الصومعة الذي يتوّجه قوس نصف دائري والذي، بدلاً من أن يكون مستطيلاً كالبابين الآخرين، فإنه بعرض يساوي 0,65م وارتفاعه يساوي 1,65م ابتداء من قمة القوس الذي يتوّجه. لا تغطي أي زخرفة وجوه الركائز ولا وجوه الجدران المقوسة التي يذكر أسلوب بنائها، مع قلة في الإتقان، بالأسلوب الذي بُنيت به الجدران المقوسة في مسجد سيد بومدين.

الأرضية مسطحة بالأسمنت، ولا تكاد حصر فقيرة بالية أن تغطيها موضعاً موضعاً.

المحراب بسيط جداً؛ والشكل 6 يبيّن أهم ما فيه من



شكل 6 -الثلاثا (الجزائر)

محراب المسجد

زخرفة ويعفيني من إعطاء تفاصيل أخرى غير القول بأن مدخل المحراب عرضه 1,25م بين جانبي الجدار اللذين يقومان مقام ركائز يستند إليها قوس المدخل، وارتفاعه 2,50 م تقريباً. في الداخل يتوّج المحراب قبة موحدة شعاعها العمودي 0,90 م.

على يمين المحراب توجد مصطبة خشنة من الخشب: إنها المنبر الذي تُلقى من فوقه خطبة الجمعة.

وعلى اليسار، أسفل المحراب، نلاحظ كتابة بالعربية منقوشة على الجدار (أنظر الشكل 6): إنها شاهد قبر من حجر الحت لجدة القايد سي محمد خبيشات، السيدة رقية بنت خبيشات المتوفاة في صفر 1307، أي منذ ثلاثين سنة. هناك أشخاص آخرون دفنوا في هذا المسجد بتاريخ حديث جداً، رغم أن نبي الإسلام ينهى عن ذلك (والذي، مع ذلك، تم دفنه هو الآخر في مسجد المدينة).

لقد كان مسجد الثلاثا القديم هذا، إذن، مثل مساجد بني سنوس الأخرى، خالياً من الأضرحة حتى هذه السنوات الأخيرة، خلافاً لما حدث في أغلب الأحيان في كثير من مساجد المدن الأخرى. وقد يستقبل هذا المسجد جثمان ولي صالح ويحمل اسمه في يوم من الأيام.

توجد الصومعة، التي هي مبنية بمادة الآجر، في الزاوية الشمالية-الشرقية للمسجد؛ ويبلغ ارتفاعها 12,50 م وعرض كل جهة من جهاتها 3,25م، وسُمك جدرانها 0,60 م تقريباً. إنها متوّجة بشرافات مثل صومعة مسجد تافسرة، شرافة في وسط كل جهة (من جهات جدار الشرفة) ونصف

شرافة في كل طرف (من أطراف جدران الشرفة)؛ ويبلغ ارتفاع هذه الشرافات 0,50 م، وعرضها القاعدي 0,70 م. وكما هو الحال في صوامع مساجد بني سنوس الأخرى، فإن صومعة مسجد الثلاثا يعلوها بناء صغير أُقيم على تصميم قاعدي مربع فوق شرفة الصومعة. ولا يوجد أي زخرفة بالجص ولا بالآجر الناتىء، ولا بالخزف المزخرف على جوانب هذه الصومعة، التي نصل إلى شرفتها بواسطة سلّم من 66 درجة موزعة على سلاسل متتالية، من أربع درجات في كل واحدة على كل جانب من جوانب الصومعة.

لقد طالب سكان الثلاثا منذ زمن بعيد بالقيام بترميمات كبيرة لمسجدهم. وهناك بعض الضرورة لفعل ذلك، سواء للحفاظ على المبنى الذي أصبحت هياكل سقوفه مكشوفة، أو لصالح سلامة السكان. واقع الحال، فإن هؤلاء السكان يشربون من ماء النبع الموجود بالمسجد والذي يخرج من تحته قليلاً ليتخذ مجراه بالقرب من الطريق العمومي؛ والحال أنه الآن، وبسبب الحالة السيئة للمجاري المائية التي تعبر قاعات الوضوء، ثمة تسرب للمياه القذرة واختلاطها بالماء الشروب.

إن الموظف الديني الوحيد بهذا المسجد هو إمام، ويتلقى أجرة شهرية قيمتها 10 فرنكات.

الظاهر أن هذا المسجد كان يتمتع بملكية موارد تعود بها عليه عقارات أوقاف عديدة، ويتم تسخيرها لصيانته وللإنفاق على الوظائف الدينية. أما اليوم، فإن جزءاً من هذه الأموال يكون قد حوّل لأغراض أخرى. فلقد تركت بعض

هذه الأموال للآغا السابق من طرف السلطة العسكرية، بعد الاحتلال الفرنسي بوقت قليل، والحقت أموال أخرى بأملاك الدولة الفرنسية.

وخلاصة القول أنه لا توجد زخرفة في مسجد الثلاثا هذا، في شكل تغطية للمساحات الجدارية. ثمة ترميمات حديثة جداً مسّت الجدران المقوسة، فأفقدت قاعة الصلاة جزءاً من حالتها المعمارية الأولية. غير أن ما بقي من أقواس متسلسلة نصف-دائرية، إضافة إلى الصومعة المتناسقة الأبعاد القائمة على تصميم قاعدي مربع، يشكل جملة من المباني القديمة الجديرة بأن يحافظ عليها ويعمل على صيانتها بذوق (وحساسية).

لهذا، فإن هذا المسجد، الذي لا شك أنه بُني في وقت لاحق لبناء مسجد تافسرة، والذي يبدو أنه يعود إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادي، يستحق أن يُصنّف في عداد آثار الجزائر التاريخية.

3- قرية الخميس ومسجدها

عندما نصعد وادي الخميس مسافة سبعة إلى ثمانية كيلومترات انطلاقاً من ملتقاه مع نهر تافنة، يبدأ مجرى النهر يضيق شيئاً فشيئاً، ثم إنه سرعان ما يختنق عند بلوغ الكيلومتر العاشر، بين جرفين عاليين يقومان على قاعدة جبلية شديدة الإنحدار نحو النهر. فعند بدء هذه الشعبة الضيقة، وعلى بعد 200 أو 300 متر من ضفة النهر اليسرى، توجد قرية الخميس على منحدر لا يكاد يخف ميله إلاّ قليلاً، في سفح جبل صخري أجرد، يتوّجه نصب تذكاري أبيض (يقوم مقام الضريح) إكراماً لصاحب بغداد، الولي الصالح الإسلامي الكبير، سيدي عبد القادر الجيلاني.

وككل قرى بني سنوس تقريباً، فإن قرية الخميس (1720 نسمة لقاء 288 موقداً، أي ما يعادل 5,97 نسمة لكل عائلة (1920)، توجد محاذية للحقول المسقية التي تزيّن أسفل الوادي تماماً، على حدود الصخور، حيث لا يمكن بعدها القيام بأي فلاحة.

هناك خمسة أضرحة بسيطة جداً، ولكنها كثيرة الإجلال، تضم رفات الأولياء الرئيسيين الذين يضمنون حماية المكان وهم: سيدي صالح شيخ أولياء القرية، الذي يقع ضريحه في الساحة الكبيرة لمن يأتي القرية من ناحيتها الشرقية؛ وسيدي أحمد بن صالح، ابن هذا الأخير، الذي يقع ضريحه غير بعيد من هناك، قبل الدخول إلى القرية، تحت شجرة بطم كبيرة ومثيرة للإعجاب، والتي بسببها أصبح يسمى «مولى البطمة»؛ وعلى أقل من 100 م شمالاً منه يوجد

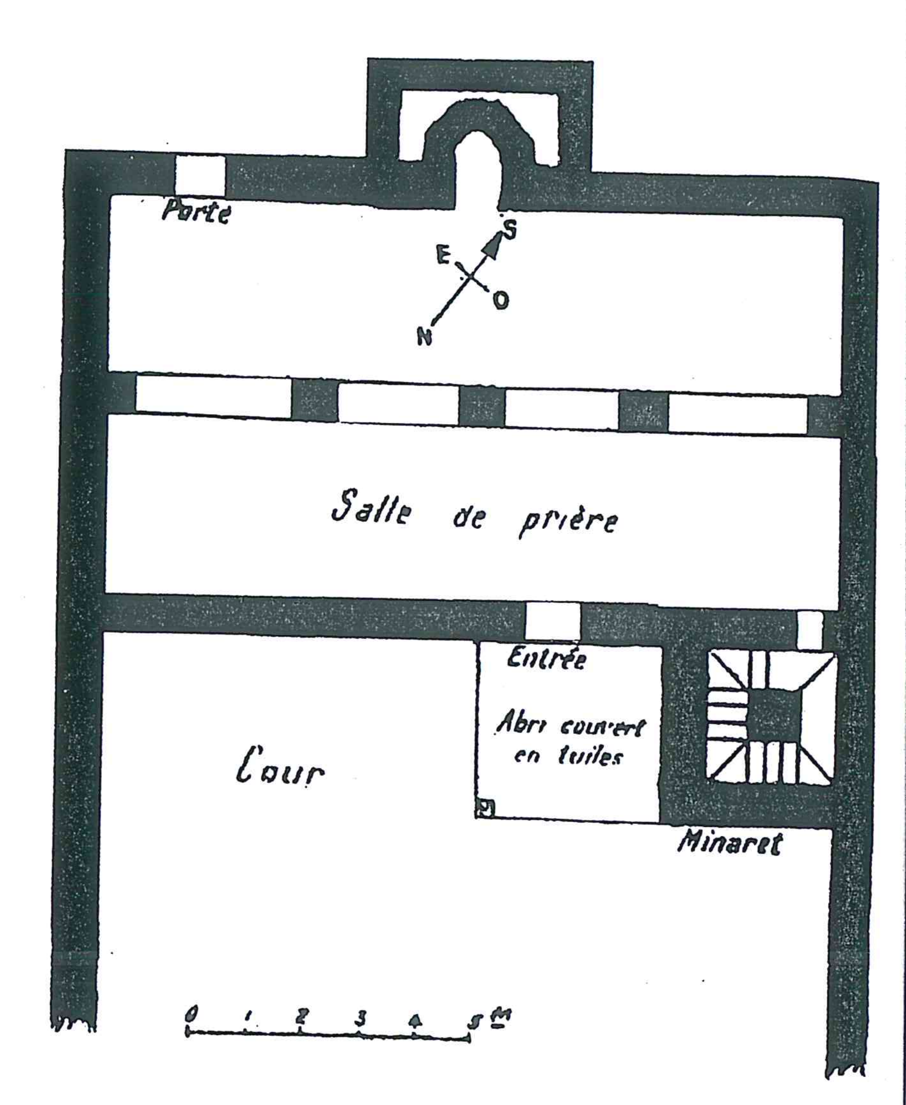
ضريح سيدي محمد بن سعيد، تحت شجرة لوز قديمة؛ في موضع أعلى من موضع الضريح السابق، وبالقرب جداً من منازل القرية، ناحية الغرب، يوجد ضريح سيدي أحمد بن سليمان، تحت واحدة من أشجار البطم العملاقة هذه، والتي كانت، بفضل ظلالها وشكلها العجيب وقوة فروعها الأخطبوطية الإلتواء، محل إجلال طبيعي من طرف البربر القدماء.

إن أولياء البربر المقيمين هؤلاء، والممثلين للقوى الإلهية الحامية، هم على صورة أولئك الذين يقدسونهم. وأما مزاراتهم، هذه الأضرحة المبنية بالحجر المبيضة بالجير، والتي تقوم في الهواء الطلق بدون سقف وبدون قبة في أغلب الأحيان، تظللها أحياناً فقط هذه الأشجار العتيقة الجميلة المبرعمة الجذوع والتي كلما ازدادت قدماً كلما ازدادت تفرعاً وجمالاً، فإنها مزارات بسيطة بساطة طقوس الإجلال الذي يوليه لهم هؤلاء الاتباع الأوفياء، المقتنعون أكثر مما يمكن تصوره، بقدرة هؤلاء الأولياء المحليين.

في قرية الخميس الكبرى، والتي هي عاصمة بني سنوس وأهم قرى الوادي كلها، فإن الحياة الدينية للسكان، على اتساعها، مركزة، كما في قرى الوادي الأخرى، على هذه الأضرحة العديدة، وعلى المسجد الذي يمثل بالنسبة إليهم الصرح الديني للإسلام، هذا الدين الذي أضافوه إلى معتقدات آبائهم القديمة، مكيفين إياه حسب ذهنيتهم، لأنه لا يزعج عوائدهم، ولأنه يضيف شيئاً جديداً إلى حاجاتهم الدينية، ولأنه، زيادة على ذلك، يبرز تفوق الرجل على المرأة، مادامت هذه محرومة من دخول المسجد لدى البربر، ولأن الإسلام في الواقع، بصريح العبارة، دين الرجال.

في بلد الخميس هذا، حيث صعوبة الحياة، على أرض حجرية وبخيلة بالعطاء، محرقة في الصيف ومثلجة في الشتاء، كل أفراد المجتمع يشتغلون، رجالاً ونساء، وخصوصاً المرأة التي تقوم بالأشغال المنزلية، وتربية الأطفال الذين هم دائماً كثيرون في العائلة، والاعتناء ببعض الانعام التي تسمح الإمكانيات بامتلاكها، والقيام بنسج أثواب زوجها وأطفالها، وممارسة النشاطات الزراعية، والتي تجد وقتاً خلال يومها الآهل بالأشغال، لكي تصنع كل أسبوع تقريباً، بمساعدة إحدى قريباتها أو جاراتها، حصيراً من هذه الحصر الجميلة المزينة برسوم بربرية بالصوف والحلفاء والتي يتكفل زوجها ببيعها في السوق (الأسبوعية).

إن قرية الخميس التي من المفيد جداً أن يقوم بزيارتها الإنسان- نظراً لموقع جبالها الرائع، حيث تتباين بصورة عجيبة جداً النباتات والأشجار التي تكسو أسفل الوادي مع العراء الذي تكشف عنه المنحدرات وقمم الجبال المشرفة على القرية، ونظراً لدروبها الضيقة الصغيرة الآهلة بالأطفال والانعام والنساء المنهمكات في الأشغال، ونظراً لسكانها المفعمين بالأصالة في هندامهم وسلوكهم- هي قرية نشيطة بصورة خاصة يوم الاثنين، يوم السوق الأسبوعية. في المنطقة كلها وعلى مدار 40 كلم لا توجد سوق أخرى غير هذه السوق. لذلك فإن سكان واديي بني سنوس والعزايل، وكذلك جيرانهم من الناحية الشمالية والغربية والجنوبية كلهم يأتون هنا لشراء ما يحتاجون إليه، وبيع منتوجات أعمالهم، خصوصاً منها تلك الحصر الذائعة الصيت التي يشتريها هنا الوسطاء لحملها إلى تلمسان أو إلى مغنية



شكل 7 -الخميس (الجزائر)

مخطط المسجد

لتسويقها بعد ذلك نحو مناطق الجزائر كلها أو نحو المغرب الأقصى.

وليست قرية الخميس هي السوق الكبرى لبني سنوس فحسب، بل هي أيضاً القرية التي يسكن بها قايد القبيلة، والتي توجد بها المدرسة الفرنسية-العربية حيث يتعلم أطفال قرية الخميس وأطفال القرى المجاورة، والتي يوجد بها على وجه الخصوص المسجد الرئيسي لوادي الخميس، هذا المسجد-الجامع الذي يستقبل كل يوم عدداً كبيراً من المؤمنين، والذي يضم، يوم الجمعة، أثناء صلاة الظهر، إلى جانب سكان الخميس، كثيراً من سكان القرى المجاورة (بني حمو، أولاد موسى، أولاد عربي).

يقع مسجد الخميس في الناحية الشمالية-الغربية وفي الجزء الأعلى للقرية، حيث يشرف عليها بصومعته على طول امتدادها.

ويحتوي المسجد على قاعة للصلاة هي اليوم مغطاة بسطح مستو، تلتصق بها صومعة ارتفاعها 13,30 م، ويتقدمها فناء كبير تتصل به غرفة في الطابق السفلي ومغارتان تحارضيتان يستخدمهما طلبة القرآن الذين هنا يسكنون.

إن قاعة الصلاة مبنية على تصميم قاعدي مستطيل عرضه 7,50 م وطوله 13,50 م تقريباً. وتمثل الجهتان الشمالية والجنوبية (حيث يوجد المحراب) الجانبين الأكبرين للمستطيل. إنها مقسمة إلى قسمين مستطيلين متساويين تقريباً، بواسطة صف جدران مقوسة مواز لجدار المحراب،

تسنده ثلاث ركائز مستطيلة مبنية بالآجر، إضافة إلى ركيزتين مثبتتين في الجدارين الغربي والشرقي (أنظر الشكل 7).

يوجد تجويف المحراب في جدار الجهة الجنوبية، في الوسط تقريباً، وهو موجه قليلاً نحو الجهة الشرقية-الجنوبية. أما المنبر، فهو عبارة عن مصطبة خشبية خشنة مكوّنة من بعض الدرجات.

لم تبق أية زخرفة داخل قاعة الصلاة. ولا شك أنها في السابق كانت موجودة، غير أن الترميمات التي قامت بها، في مراحل مختلفة منذ الاحتلال الفرنسي، وفي هذه السنوات الأخيرة، مصلحة الجسور والطرق (التابعة لبلدية مغنية) قد قضت على الطابع القديم لهذه القاعة، ومن المحتمل أن تكون قد قضت على زخرفتها القديمة أيضاً.

لقد مسّت الترميمات الأخيرة، حسب ما ذكره السكان وما لاحظه كاتب هذه السطور في عين المكان، السطوح القرميدية المائلة، التي عوضت بسطوح مستوية، وسقوف الخشب التي عوّض هيكلها بسقوف مقوسة من الآجر مستندة إلى عوارض حديدية في شكل T (17).

ولقاعة الصلاة هذه ثلاثة أبواب: الباب الأول، وتوجد فتحته في جدار الجهة الجنوبية إلى الجانب الشرقي للمحراب، وباب آخر فتحته في جدار الجهة الشمالية، هو المدخل الرئيسي للمسجد، ويقع إلى الجانب الشرقي للصومعة متصلاً بالفناء. وهو مسبوق ببهو يتكىء من جهة على جدار المسجد ومن جهة أخرى على جدار الصومعة، أما

جهتاه الأخريان فمكشوفتان، وهو مغطى بالقرميد. إن هذا المجال المسقوف والذي يبلغ طول كل جهة من جهاته 4 أمتار، مجهز بمقاعد حجرية، باستثناء جهته الشرقية. وهناك، أخيراً، باب ثالث فتحته داخل قاعة الصلاة في الجهة الغربية للجدار الشمالي ويؤدي إلى الصومعة.

إن فناء المسجد الذي يعبره المؤمنون القادمون من الجزء الأعلى للقرية لدخول قاعة الصلاة هو عبارة عن شكل مستطيل طوله حوالي 16,50 م من الشمال إلى الجنوب، وعرضه حوالي 14,50 م من الشرق إلى الغرب. وفي الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد توجد غرفة مساحتها 3 م x 5,5 م يستعملها الطلبة قاعة لتعلم القرآن. وقرب هذه الغرفة من جهتها الغربية توجد مغارتان تحأرضيتان يستعملهما الطلبة للنوم وطبخ الطعام.

وفي الزاوية الجنوبية الغربية لهذا الفناء، بُنيت الصومعة بالآجر ملصقة بجدار قاعة الصلاة. وهي الجزء الوحيد من المباني القديمة التابعة للمسجد الذي حوفظ عليه في صورته الجيدة. إنها صومعة أنيقة متناسقة الأبعاد، وهي تشبه صوامع تلمسان المبنية في القرن الرابع عشر، مع فارق بسيط وهو أن هذه الصومعة لا تحتوي على أي تزيين بالخزف المزخرف.

يؤدي إلى شرفة الصومعة، التي يرتادها المؤذن للنداء إلى الصلاة، سلّم داخلي من 61 درجة. وتوجد أرضية الشرفة تحت حافة الجدار الحاجز الذي يحيط بها بمتر واحد. وتبعد هذه الحافة نفسها عن مستوى الأرض بارتفاع قدره 13,60 م،

وتتوّجها شرافات شبيهة بشرافات صومعتي المسجدين المدروسين سابقاً. وكما في هذين الصومعتين، فإن مركز الشرفة يشغله بناء صغير يقوم على تصميم قاعدي مربع كل واحدة من جهاته طولها 1,35م، أما علوه فإنه يبلغ 3,30 م، وهو من جهته متوّج بشرافات أيضاً.

إن وجوه الصومعة الأربع التي عرض كل واحد منها خارجياً 3,60 م مقسمة في اتجاه الارتفاع إلى 3 أقسام غير متساوية، مشكلة انطلاقاً من الأسفل قاعدة ومأطورة وسطى ومأطورة تتويج.

إن المأطورة الوسطى هي الوحيدة التي يظهر عليها زخرف ناتىء. ففي إطار مركزي مشكل من مستطيل يتوجه بطوله نحو الأعلى، حيث تمثل أطرافه مستوى جدار الصومعة وحيث يرتد وسطه بعمق قدره حوالي 0,04 م، مبنيتان بالآجر المجرد ومشكلتان ارتداداً بعمق قدره حوالي 0,06 م عن مستوى الإطار.

وعلى الجوانب الأربعة للبناء الذي يعلو شرفة الصومعة (والذي يسمى هنا «الربيب الفوقاني») توجد زخرفة مماثلة، غير أنها بسلسلة قويسات واحدة. فمن حيث شكلها وأبعادها وزخرفة جوانبها وجوانب البناء الذي يعلو شرفتها، تعتبر صومعة مسجد الخميس أهم صوامع مساجد هذه النواحي كلها.

إن هذه الصومعة لجديرة بأن تُصان ويُحافظ عليها بعناية. لذلك فإنه يستحب أن لا تطالها ترميمات سيئة كتلك التي مسّت قاعة الصلاة بالمسجد فتتلف رونقها.

وخلافاً لما هو معمول به، فإن هذا المسجد ليس به مراحيض ولا أحواض مياه جارية للوضوء. ربما وجدت به أحواض من قبل؛ ولقد تمّ حديثاً بناء حوض في الجزء الشمالي-الغربي للفناء. غير أن هذا الحوض الذي مازال قائماً، جاف من الماء منذ 5 أو 6 سنوات، ولا يمكن أن يرد إليه الماء حالياً دون القيام بأشغال جديدة تتعلق بجر المياه وتصريفها من مكان بعيد عن المسجد. في الواقع، فإن الماء الذي ينحدر من المسجد نحو الوادي، لابد أن يمر بجزء من القرية تحت سطح الأرض، وهو حتى وإن كان يجري في الدروب الصغيرة المؤدية إلى الحقول، إلاّ أنه قد يتسرب إلى سراديب البيوت، إلى تلك المغارات التي تستعمل للسكن؛ ولتجنب هذه التسربات، لابد من شبكة محكمة من القنوات لصرف المياه عبر القرية.

إن هذا المسجد مصنّف ضمن المباني الدينية الرسمية ويستحق أن يكون به إمام موظف بأجرة رسمية.

إنه أهم من مسجد مغنية، لا من حيث عدد المصلين الذين يعتادونه، ولا من حيث قدمه. وإنه، على ما يبدو، يملك أموالاً وقفية على جانب كبير من الأهمية.

إن هذا المسجد لجدير، بفضل قدمه وأصالة صومعته الجميلة، أن يصنّف ضمن الآثار التاريخية.

4- قرية بني عشير ومسجدها

بعد قرية الخميس نحو الأعلى بأقل من ثلاثة كليومترات، على ضفاف مجرى النهر دائماً وفي سفح الجروف العالية دائماً، تقع قرية بني عشير التي يبلغ عدد سكانها 625 نسمة لقاء 110 موقداً، أي ما يعادل حوالي 5,7 نسمة لكل عائلة تقريباً (1920). يعبُر وسطها النهر فيقطعها إلى جزئين أحدهما على الضفة اليمنى، والآخر، وهو الأهم، على الضفة اليسرى. إن هذا الجزء السكني الأخير، هو الذي توجد به مطحنة القايد، التي تدور آلياتها بطاقة ماء النهر، ويوجد المسجد.

تحيط بالقرية أضرحة الأولياء الحماة، ولأن القرية توجد في جزء من الوادي يتسع قليلاً ناحية الضفة اليسرى، فإن منازل القرية مبنية على أرض قليلة الإنحدار.

وفي حين أن سكان القرى، التي تحدثنا عنها والتي درسنا مساجدها سابقاً، يتكلمون كلهم العربية، فإن السكان هنا يتكلمون البربرية، مثل جيرانهم القاطنين في القرية الموجودة على الضفة اليمنى للنهر، نحو الأسفل قليلاً، أي سكان أولاد عربي.

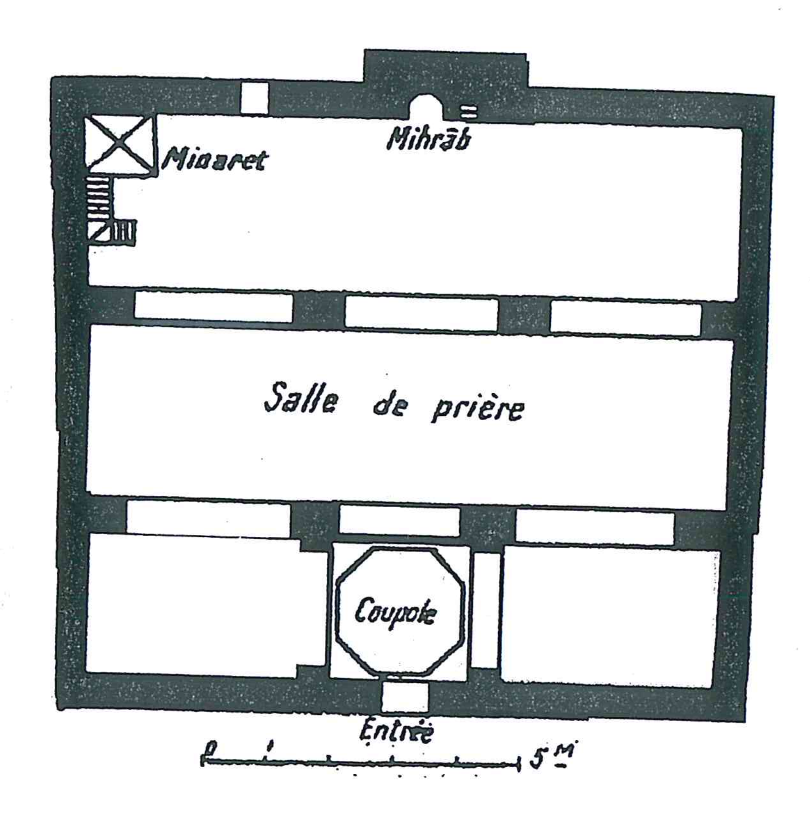
وجدير بالملاحظة أن القرى الثلاثة الأولى الواقعة في الجهة السفلى لمجرى نهر الخميس، أي بني حمو، والخميس، وأولاد موسى، كلها قرى ناطقة بالعربية، وأنه كلما صعدنا الوادي ابتداء من أولاد عربي، وعلى أقل من 500 م من أولاد موسى، وجدنا أن القرى كلها تتكلم البربرية.

لقد أمكنني إضافة إلى ذلك ملاحظة أن اللغة العربية قد أحرزت تقدماً محسوساً في هذا الوادي، خلال فترة تقدر بخمسة عشر سنة. فقبل 15 سنة، كان كل الرجال يتكلمون العربية ويفهمونها بهذا القدر أو ذاك، بينما كانت النساء يكدن يجهلنها تماماً. أما اليوم، فقد بدأت النساء يفهمن العربية ويتحدثن بها قليلاً هن أيضاً.

حينما نسأل سكان القرية عما إذا كان مسجدهم قديماً، فإنهم يجيبون بأنه يعود إلى عصر الملوك الذين بنوا المنصورة قرب تلمسان أو يجيبون أيضاً بأن عمره يتجاوز الأربعة قرون. إن هؤلاء السكان، وهم يجهلون تاريخهم وتاريخ منطقتهم، لا يملكون معرفة دقيقة عن تأسيس هذا المبنى الديني الإسلامي القديم، الذي يتمسكون به بعمق، رغم أنهم بربر خالصون عرقاً ولغة وتقاليد.

يتكوّن مسجد بني عشير أساساً من قاعة للصلاة تقوم على تصميم قاعدي رباعي الشكل، وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء مستطيلة متساوية (تمثل الأجنحة) يحددها صفا جدارين مقوسين موازيين لجدار المحراب. ووضعية هذين الصفين الجداريين(19) هي نفس الوضعية التي نجد عليها صف الجدران المقوسة بمسجد الخميس. إن ملاحظتها مثيرة للإعجاب، لأنها تختلف عما نجده في مساجد تافسرة أو الثلاثا أو تلمسان مثلاً، حيث أن الجدران المقوسة تفصل بين الأجنحة وتكون متعامدة مع جدار المحراب (أنظر الشكل8).

تقوم هذه القاعة على تصميم قاعدي مستطيل قريب شكله من المربع، وهي متفاوتة الأبعاد، متوسط عرضها 11 متراً، وقياس الجهة المتعامدة مع جدار المحراب 9,40 م.



شكل 8 – بني عشيرة (الجزائر)

مخطط المسجد

توجد فتحة الباب الرئيسي وسط جدار الجهة الشمالية، فهي تقابل المحراب. وعلى يسار هذا الأخير، في جدار الجهة الجنوبية (للمسجد) فُتح باب آخر يتصل بفناء صغير، يشرف على النهر، تتصل به من جهتهما حجرة تعليم الطلبة ومغارة تحأرضية يتخذها الطلبة مقراً فيه يسكنون.

ليس بالمحراب الذي يوجد في وسط جدار الجهة الجنوبية أية زخرفة، ومثله الوجوه الداخلية والخارجية لجدران قاعة الصلاة. إلاّ أنه توجد على يمينه حجرة ضيّقة، حفرت فى الجدار على علو معيّن من مستوى الأرض، يصعد إليها بدرجتي سلّم عاليتين، وهي تحل محل المنبر في المساجد-الجوامع الأخرى، يعتليها الإمام لالقاء خطبة الجمعة.

يبيّن المخطط المثبت هنا أبعاد قاعة الصلاة، كما يبيّن العناصر التي تكوّنها.

هناك سلّم مبنى بالآجر ملتصق بجدار الجهة الشرقية لقاعة الصلاة، يتجه نحو الزاوية الجنوبية الشرقية، ويسمح بالصعود من داخل القاعة إلى حجرة صغيرة مستطيلة الشكل قياسها متر واحد على 1,30 م توجد على مستوى السطح. وتحل هذه الحجرة، التي يمكن أن تحتوي واقفاً رجلاً واحداً، محل الصومعة، وقد فُتحت في كل جهة من جهاتها الأربعة فتحة ضيقة مستطيلة ككوة رمي القذائف في الحصون، انطلاقاً منها ينادي المؤذن للصلاة. ويشبه الشكل الخارجي لهذه الحجرة مظهر القبيبة بسطحها الهرمي الرباعي الجوانب، المغطى بالقرميد الأحمر مثل سطوح هذا المسجد، التي هي ثلاثة، لكل واحد منها جانبان مائلان، والتي تغطي الأجنحة الثلاثة للمسجد.

أما سقوف أجنحة قاعة الصلاة الثلاثة الموازية لجدار المحراب، فإنها مماثلة تماماً لسقوف مسجدي تافسرة والثلاثا المدروسين آنفاً.

غير أنه عند دخولنا من الباب الرئيسي إلى الجزء الشمالي للمسجد، وبين هذا الباب وبين الركيزتين الأوليين اللتين يقوم عليهما الجدار المقوس المركزي، نجد أنفسنا تحت قبة من الآجر، مطلية من الداخل بالجبس، تستند إلى قاعدة ثمانية الأضلاع، ولا تزينها أية زخرفة.

إن سطح القرميد الأحمر الذي يغطي هذه القبة عبارة عن هرم رباعي الجوانب، يستند إلى قاعدة من أربعة جدران بيضاء، بصورة تجعل المجموع (المكون من السطح الهرمي وقاعدته) منظوراً إليه من الخارج، يأخذ شكل قبيبة مماثلة لقبيبة الصومعة، وتعلو السطوح المغطية لأجنحة المسجد هي كذلك.

لا يوجد بهذا المسجد مراحيض ولا أحواض للضوء. فالمؤمنون يذهبون للتوضؤ إلى النهر الذي يجري على بعد عشرين متراً أسفل المسجد.

رغم عمر هذا المسجد، الذي يبدو أنه يعود إلى تاريخ قديم، فإنه لا يوجد شيء في زخرفته ولا في هندسة مبناه ما يمكن أن يجعله جديراً بالتصنيف كأثر تاريخي.

أن يكون المسجد قد جهّز بما يشبه المنبر للارتقاء به إلى مستوى المسجد-الجامع، في حين أنه بالقرب جداً منه، وعلى بعد أقل من 3 كيلومترات، يوجد مسجد من هذا النوع في قرية الخميس، فإن ذلك دليل آخر على تلك الخصوصية

البربرية التي تكشف عن نفسها في كل مكان لدى سكان هذا البلد. لقد أراد سكان بني عشير أن يكون لهم مسجدهم الجامع في قريتهم، حتى لا يدينوا بالتبعية لمسجد الخميس.

ومن ناحية أخرى، يبدو أن سكان بني عشير كانوا منذ زمن بعيد متمسكين بمسجدهم الذي توجد ملحقةً به أموال وقفية هامة.

٧- خاتمة

وأنا أبيّن في الفقرات السابقة أهمية المساجد-الجوامع لقرى العزايل (بلدية سبدو المختلطة المدنية) وقرى بني سنوس (بلدية مغنية المختلطة العسكرية) والتي هي قديمة جداً، من وجهة نظر الهندسة المعمارية والفن وعلم الآثار، وأنا أبيّن أيضاً الحالة التي توجد عليها هذه الآثار، في غياب الترميمات والصيانة أو بسبب الترميمات السيئة، كما هو الحال بالنسبة لمسجد الخميس، أظن أنني أشرتُ بما فيه الكفاية إلى الفائدة التي يمكن تحقيقها من وراء تصنيف هذه المباني الدينية الإسلامية ضمن آثار الجزائر التاريخية (وإضفاء الطابع الأثري عليها رسمياً).

إن دراسة هذه الآثار لم تسمح بتحديد تاريخ تأسيسها بصورة دقيقة، وذلك لعدم وجود معلومات يقدمها لنا علم النقوش أو الأخبار التاريخية المحلية.

لا أظن أن هذه المساجد يعود تاريخ تأسيسها إلى عصر إدريس الأول الذي أسس، كما هو معلوم، أول مسجد (في أغادير) بتلمسان عام 174 هـ (790م) (20). والأقل من ذلك ظناً أن تكون هذه المساجد قد تأسست قبل هذا التاريخ، ذلك أن تشييداً كهذا كان سيمثل حدثاً بالغ الأهمية، ما إن المؤرخين الذين أشاروا إلى تأسيس المسجد الأول بتلمسان، لم يكن ليفوتهم الحديث عن مساجد الضواحي. من جهة أخرى، لا يمكننا أن نعزو إلى عقبة (بن نافع) أو إلى أحد قادته، الذين اكتفوا كلهم بالعبور فقط بمناطق الغرب، تأسيس المساجد في بني سنوس، وهم الذين لم يتركوا، أي مسجد حتى في

على هذا الأساس، إذا لم يوجد بصوامع مساجد بني سنوس أي تزيين بالخزف المزخرف الذي له أثر جميل في صوامع القرن الرابع عشر في تلمسان أو في فاس، فإن ذلك ليس دليلاً على جعل تاريخ هذه الصوامع يرجع إلى عصر آخر غير عصر الزيانيين. ذلك أن الأمر هنا يتعلق بمساجد ريفية بسيطة، حيث أن الزخرفة بها كانت محدودة للغاية. فضلاً عن ذلك، نحن نعلم أن استخدام الخزف المزخرف بصورة وفيرة نسبياً في الصوامع المغربية، لم يظهر إلاّ مع بداية لقرن الرابع عشر الميلادي، وبالأخص في المساجد المرينية.

وأخيراً يخبرنا التاريخ أن ملوك تلمسان قد اصطنعوا لهم موظفين، أو على الأقل قادة عسكريين، من بلد بني سنوس. وأنه وجب على هؤلاء الموظفين أن يكون لهم بعض المستوى التعليمي بالعربية حتى يمكنهم العيش في بلاط ملوك تلمسان، الذين كانوا، حسب ما يقوله كتّاب ذلك العصر، على جانب معيّن من الثقافة. ويمكننا الاعتقاد بأن أساسيات هذا التعليم متمثلة في حفظ القرآن على الأقل، قد اكتسبها هؤلاء الموظفون في بلدهم وفي مساجد قراهم.

فما المدهش في أن يكون قادة من أصل سنوسي، مثل ذلك القائد الشهير يحيى بن موسى السنوسي، قد ساهموا في بناء مساجد في بلدهم أو على الأقل في بناء الصوامع التي تحدثنا عنها.

ولماذا لا يكون أيضاً ملوك مثل يغمراسن والملوك الأوائل الذين خلفوه قد أمروا هم أنفسهم، كسياسيين محنكين، ببناء هذه الصوامع الأنيقة، لربح صداقة سكان تافنة العليا الجبليين، الذين كانوا يحرسون الطريق الواصل

بين وجدة وتلمسان(22)، والذي تمر به جيوش الأعداء المرينيين.

بالطبع ليس ما نقدمه هنا إلاّ فرضيات، ولكنها فرضيات معقولة، وبما أنها تضاف إلى المعطيات التي تقدمها لنا هندسة هذه الصوامع وفنها، لإرجاع تاريخ بنائه إلى بداية القرن الرابع عشر، فإنه لا يجوز لنا إهمالها.

باختصار، يبدو أنه بامكاننا منطقياً أن نرجع تاريخ بناء الصوامع في مساجد تافسرة والثلاثا، زهرا والخميس إلى القرن الرابع عشر الميلادي. أما بالنسبة للمساجد التي تحتويها، فإنه يمكن إرجاع تاريخ بنائها إلى نفس العصر أو إلى عصر أقدم من ذلك. غير أننا لا نستطيع أن نقول ما هو بالتقريب تاريخ بنائها.

وإذا كنّا قد أشرنا إلى وجود زخارف بالآجر الناتىء تمثل سلاسل قوسية ذات طابع تقليدي في فن الزخرفة بالمغرب والمشرق، الأمر الذي يسمح لنا بارجاعها إلى عصر ازدهار الفن الإسلامي، فإننا بيّنا، في مقابل ذلك، أن العديد من مساجد بني سنوس هذه - بل حتى بعض المساجد التي لم نهتم بوصفها هنا- تحتوي على زخرفة من فن التزيين البربري الذي ينطوي على قيمة سحرية، كما نجد ذلك في بيوت الخواص وفي زخرفة الحلي والتحف الفنية البربرية. وهذا ما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن قاعات الصلاة في هذه المساجد قد تمّت زخرفتها من طرف حرفيي البلد، وليس من طرف أولئك الحرفيين الذين زينوا مساجد المدن المغربية بالزخرفة الفنية العربية المنقوشة على الجص أو الخشب.

إن التغطيات الجدارية بالخزف المتعدد الألوان

والتغطيات الرائعة بالجص المنقوش والتغطيات الخشبية الداخلية للآفاريز والسقوف، ومصاريع الأبواب والمنابر مزينة بالزخارف المنقوشة أو الملونة، والتي نجدها في مساجد القرن الرابع عشر الميلادي، وخصوصاً في مدارس ذلك القرن، لا وجود لها في مساجد بني سنوس التي هي على قدر كبير من البساطة.

مع ذلك، فإن هذه المباني عبارة عن نماذج قديمة للفن الإسلامي في الريف البربري التلمساني، وهي هامة على أكثر من مستوى. لذلك، لابد من الحفاظ عليها كاملة واسناد مهمة ترميمها إلى ذوي الكفاءة والاختصاص.

ويمكننا، إلى جانب هذه القيمة الأثرية التي تفرض علينا الحفاظ على مساجد بني سنوس، أن نضيف دواعي أخرى محض دينية وسياسية للحفاظ عليها، بما أن سكان البلد يعزون أماكن الصلاة منذ قرون ويترددون عليها بلا انقطاع، وبما أنهم خصوها بأموال وقفية عائداتها مقبوضة، ولو جزئياً على الأقل، من طرف مصالح أملاك الدولة الفرنسية.

أليس من العدل بالنسبة للدولة الفرنسية، التي حلّت في الجزائر محل السلطة الإسلامية في نظر السكان، أن تتكفل بصيانة المساجد في منطقة بني سنوس، كما فعلت ذلك بسخاء في كل مكان؟(23).

فرجاؤنا أن تكون هذه السطور قادرة على لفت الانتباه إلى أهمية هذه المباني الدينية، وأن تكون سبباً في تصنيفها رسمياً كآثار تاريخية.

ألفرد بل

هوامش

(1)- «يحمل سكان مقاطعة تلمسان الأصليين، كسائر سكان الجزائر، فكرة واضحة عن الطابع المميز للمباني الرومانية، ولا يخطئون إلاّ نادراً بهذا الخصوص». هذا ما يقوله ماك كارثي (المجلة الإفريقية، I، 263)؛ غير أنني أحمل رأياً مخالفاً لرأيه تماماً. فلقد أمكنني، فيما يخص بني سنوس بالضبط، أن ألاحظ تصوراتهم الخاطئة عن كل الأطلال التي ينسبونها إلى الرومان.

(*)- لم يشر ألفرد بل إلى المرجع، وبالرجوع إلى النص الأصلي في كتاب العبر نجد ما يلي :«وأما يحيى بن موسى فأصله من بني سنوس إحدى بطون كومية، ولهم ولاء في بني كمي، بالاصطناع والتربية. ولما فصل بنو كمي إلى المغرب قعدوا عنهم، واتصلوا ببني يغمراسن فاصطنعوهم، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم». أنظر: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ بن خلدون، بيروت: دار الكتب العلمية، المجلد السابع، 1992، ص134.

(2)- ليس ما يُشار إليه إدارياً بقبائل بني سنوس وقبائل العزايل إلاّ تقسيماً اعتباطياً، غير ذي قيمة إثنية أو جغرافية. فهاتان القبيلتان تنتميان إلى نفس الجماعة أو الأسرة البربرية المسماة بني سنوس، وبالضبط إلى أولئك الذين يتكلم عنهم ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي والذين سكنوا ومازالوا يسكنون المرتفعات الجبلية الواقعة جنوب-غرب تلمسان ابتداء من نهر تافنة تقريباً. تشمل هذه المنطقة، إضافة إلى الأقسام الإدارية لبني سنوس والعزايل، قبيلتي الكاف وبني بوسعيد الناطقتين بالبربرية.

(3)- إنها القرى الأكثر بعداً عن تلمسان والأكثر توغلاً في الجزء الأعلى لوادي الخميس، وهي: أولاد عربي، بني عشير، بني زيداز ومازر. وخلافاً لها فإن كل قرى العزايل وقرى بني حمو والخميس وأولاد موسى يتكلمون العربية. ولقد لاحظتُ، خلال الإقامات المختلفة التي أمضيتها في هذه المناطق بين 1902 و1920، أن هذه اللغة مستمرة في الانتشار أمام أعيننا في قرى وادي الخميس.

(4)- وهذا ما حاولتُ عرضه باعطاء وصف شامل في مقالي:

- *Coup d'oeil sur l'Islam en Berbérie*, dans la (Revue de l'histoire des réligions, Paris, 1917).

(5)- أنظر ما ذكرته في دراستي:

- *Inscriptions arabes de Fès*, Vol I, in-8, (420 p, et 95 illustrations, Paris, Impr. Nat., 1919).

(6)- لإعطاء إحصائيات دقيقة حول هذه المسألة، اتصلتُ في بداية جوان 1920 بالسيد قابض أملاك الدولة بتلمسان الذي يتولى قبض هذه الموارد، حتى أتحصل على الرقم وعلى قائمة العقارات الوقفية بمساجد بني سنوس والعزايل. واعتقد هذا الموظف أن من واجبه تحويل طلبي إلى مديريته بوهران للسماح له بتزويدي بالمعلومات المطلوبة. من جهتها، فإن مديرية وهران، وقد خشيت أن تتحمل مسؤولية كهذه، حولت الطلب إلى الجزائر. هنا توقفت المسألة ولم أتحصل على المعلومات المطلوبة.

(7)- يزعم سكان بني سنوس أن عائدات الحقول الوقفية التابعة لمساجدهم تبلغ حالياً 4000 فرنك، وهو رقم يبدو مبالغاً فيه كثيراً.

(8)- عندما زار السيد القائد العام الجنرال لوتو، في جويلية 1917 قرية الثلاثا ومسجدها، طلب منه السكان تكليف مرؤوسيه بالقيام بالترميمات الضرورية للمسجد، ولكن هذه الأشغال لم تنطلق إلى حد الآن.

(9)- إستازيل (التي يذكرها مارمول) وتزيل التي يذكرها البكري (في القرن العاشر الميلادي) كلمتان قريبتان من كلمة العزايل الحالية.

(10)- Marmol, L'Afrique, Tome II, p. 336.

(11)- لا شك أن الأمر يتعلق بحفيد الخليفة (الراشدي) علي، ذلك الذي ولد بالحبشة وتوفي على وجه الاحتمال بين 80 و90 هـ. هذا الزعيم لم يقدم إلى المغرب ولم يكن أبداً قائداً بين قادة عقبة (بن نافع).

(12)- تكشف الركيزتان الموجودتان أمام المحراب في جانبها المتوجّه نحو وسط الجناح المركزي عن نتوء سمكه 0,20 م، على امتداد علوها كله، لدعم الرواق المقوس الذي لا يوجد بين الركيزتين الأخريين.

(13)- أنظر مثلاً:

- Prosper RICARD, *Les arts et industries indigènes du Nord de l'Afrique, Fès*, Impr. municipale, 1918, p. 32 et fig. 9.

(14)- أنظر دراستي:

- *Inscriptions arabes de Fès*,op.cit., fig. 5,6,29, par exemple.

(15)- أنظر:

- Prosper RICARD, op.cit., fig. 10 et 16.

(16)- لقد قبل السيد قوادري، المدرس بالمدرسة الفرنسية-العربية بقرية الثلاثا، أن يبعث لي بعض القياسات التي لم أستطع تسجيلها أثناء مروري (بالقرية) لإكمال التوثيق بغرض وضع مخطط مسجد الثلاثا ومسجد تافسرة. فلا يفوتني هنا أن أعبّر له مرة أخرى عن شكوري.

(17)- لدعم الجدار الجنوبي لهذه القاعة، ثبتت مصلحة الجسور والطرق 4 ألسنة (إثنان في الجهة الجنوبية وإثنان في الجهة الشمالية)، موصولة مثنى مثنى خلال الجدران وقاعة الصلاة بقضيبين حديدين مظهرها على أسوإ ما يكون.

(18)- في كتابه «دراسة حول لهجة بني سنوس البربرية» قدّم إدمون ديستان (ص XXII) عدد سكان القرى كلها مع تفاصيل عن نسبة الرجال والنساء والأطفال، ذكوراً وإناثاً. كان مجموع سكان بني عشير في تلك الفترة (1906) 514 نسمة بدلاً من 625، وهو ما يعادل نمواً قدره 111 نسمة خلال 14 سنة. هذه الملاحظة تنطبق على كل القرى الأخرى لهذه المنطقة الفقيرة التي مع ذلك لم يدخل إليها الاستعمار والتي تظهر الحياة بها صعبة بصورة خاصة.

(19)- أقواس الجدران المقوسة نصف دائرية منخفضة، تستند إلى ركائز مستطيلة الشكل قصيرة جداً. فقمة القوس توجد على علو 2,65 م من مستوى الأرض، بينما لا يزيد ارتفاع الركيزة عن 0,80م. الجدار المقوس بمجموع عناصره خشن ومضغوط.

(20)- أنظر:

- Afred BEL, *Fouilles faites sur l'emplacement de l'ancienne*

mosquée d'Agadir (Tlemcen) dans Revue Africaine, No 288, 1913.

(21)- لقد بيّنتُ في موضع آخر كيف أن شكل صوامع فاس وزخرفتها تسمح بوضع تصنيف كرونولوجي. أنظر تصدير كتاب:

- LARIBE, (Le commandant), *Maroc pittoresque*, Fès, Paris, Bertrand, 1917, pp. 6 et 7.

(22)- من المعلوم أن ملوك تلمسان كان لهم في هذه المناطق الجبلية، جنوب -شرق وجدة، برج مراقبة يذكره المؤرخون باسم تامزيزديكت. أنظر مثلاً كتابي:

- *Histoire des Beni-Abd-El-Wâd, rois de Tlemcen*, tome I et II, Alger, Fontana, index, S.V^{0}).

أو يذكرونه باسماء مماثلة. ولكن صديقي إدمون ديستان، أستاذ البربرية بالمدرسة العليا للغات الشرقية، وجد موضعه قبل بضع سنوات على جبل أمزازو الواقع بالضبط على التخوم الشمالية الغربية لبلدية بني سنوس.

(23)- لم أشر في هذه الدراسة إلى مسجد الكاف، هذه القرية الكبيرة المنتمية إلى نفس المنطقة (مغنية المختلطة العسكرية)، لأن المسجد أعيد بناؤه كلياً من طرف الإدارة الفرنسية، ولأنه لا يقدم لنا أية قيمة فنية أو أثرية، إلاّ أنه ينتمي إلى المباني الدينية المعترف بها رسمياً والتي تتكفل الدولة بصيانتها .

ملاحق الدراسة

- ملحق I: فهرست الأشكال
- ملحق II: معجم الكلمات الأساسية
- ملحق III: أعمال ألفرد بل الكاملة .

ملحق I: فهرست الأشكال

ملحق II: معجم الكلمات الأساسية

(فرنسي- عربي)

A

Adduction(d'eau)	جر (مياه)
Affluent	رافد (نهر)
Agglomération	تجمع سكاني
Aile	جناح (في حرم معبد)
Attitude	علو (عن مستوى البحر)
Anfractuosité	تعرج (سلسلة جبلية)
Arabesque	فن الزخرفة العربي
Arbalétrier	عارضة رئيسية (في سقف)
Arc	قوس
Arc en plein ceintre	قوس نصف دائري
Arc lobé	قوس مفصص
Arc outrepassé	قوس حذوي
Arc surbaissé	قوس منخفض
Arc surhaussé	قوس معلى (على دعامتين)
Arcade	رواق مقوس
Arcature	سلسلة أقواس (أو قويسات)
Architecture musulmane	فن العمارة الإسلامي
Arête	زاوية ناتئة
Arête centrale	زاوية مركزية ناتئة

Arêtier	رأس القبة
Argile	غضار

B

Badigeonnage	تكليس، تبييض
Bande	حزام
Bandeau	إفريز
Bas-relief	نحت نافر
Bas-relief méplat	نحت أمسح مبسط أو ناتىء
Bati	هيكل (بناء)
Beige	صحراوي اللون
Bénédiction	بركة
Béton	ملاط
Bigarré	أبلق اللون (مزيج من البياض والسواد)
Boiserie	زخرفة خشبية داخلية
Bombé	محدب (الشكل)
Brique	آجر
Brique en saillie	أجر ناتىء
Brique émaillé	خزف
Bosselage	نقش ناتيء

C

Calcaire dolométique	كلس دولوميتي
Canalisation	حفر قناة، شد

Carte	خريطة
Caverne	كهف
Centre minier	منجم، مركزمنجمي
Cérémonie religieuse	حفل ديني
Chaire	منبر
Chapiteau	تاج العمود
Charpente	هيكل (خشبي أو حديدي)
Chroniques	أخبار تاريخية
Cime ruiniforme	قمة اطلالية
Classement	تصنيف (رسمي لأثر)
Cloison	حاجز
Colonne	عمود (ارتكاز)
Colonne accouplée	عمود مزدوج
Colonne adossée	عمود مدعم
Colonne monolite	عمود موحد
Colonne renflée	عمود متفتح
Colonnette	عُميد
Coloration	تلوين
Compartiment	مقصورة، حجيرة
Confrérie	زاوية (طريقة صوفية)
Console	كتيفة الافريز
Contrefort	دعامة

Contribution	ضريبة
Corne	زاوية
Corniche	طنف
Côte	جانب ناتيء
Couche géologique	طبقة جيولوجية
Créneau	حزّيّة، زخرفة من حزات مستطيلة متتابعة
Crête	قمة
Culte des saints	تقديس الأولياء

D

Dalle	بلاط
Débouché	منفذ، سوق
Décor	زخزف
Décoratif	زخرفي
Décoration	زخرفة
Défoncement	حفر عميق
Demi-colonne	نصف عمود
Dimensions	أبعاد
Disposition	ترتيب، تنظيم
Dynastie	دولة أسرة حاكمة

E

Ecoinçon	ركنية (زاوية بين قوسين متماسين)

Ecoulement	تصريف المياه
Edicule	بناء صغير (فوق سطح)
Edifice	مبنى، صرح
Encadré	مؤطر
Encadrement	تاطير
Enceinte	سور، مكان محاط بسور
Enchevêtrement	تشابك
Encorbellement	كتيفة ناتئة (يقوم عليها قوس)
Enduit	طلاء، دهان
Entretien	صيانة
Epigraphie	علم الكتابات المنقوشة
Evasement	توسيع فوهة، اتساع

F

Face	وجه، جانب
Façade	واجهة
Faïence	زليج
Faïence émaillée	زليج مزخرف
Faïence polychrome	زليج متعدد الألوان
Fer à T	عارضة حديدية في شكل T
Ferrugineux	حديدي، محتو على الحديد
Fête patronale	وعدة (وليمة للتبرك بولي)
Fétiche	صنم

Flanc	جنب، منحدر (جبل)
Fond	عمق، قعر، أرضية لوحة
Fondation pieuse	مؤسسة خيرية
Fortification	تقوية، تحصين
Fouille	تنقيبات، حفريات أثرية
Frise	افريز
Fruste	أمسح، غير واضح المعالم

G

Galerie	رواق
Garniture	جهاز، زينة
Germiné	مزدوج
Gorge (rocheuse)	شعبة، مضيق (صخري)
Gravure	فن الحفر، نقاشة
Grès (poreux)	حجر رملي، صلصال رملي (مسامي)
Grotte	مغارة
Gué	معبر

H

Habous	حبوس، وقف، أموال وقفية
Hachure	تظليل بالخطوط
Hachure croisée	تظليل بالخطوط المتصالبة
Hachure incurvée	تظليل بالخطوط المقوسة

I

Impôt	ضريبة
Infiltration	تسرب (المياه)
Intrados	باطن القوس

L

Lambri	تلبيسة، تغطية (جدار أو سقف)
Lambrissé	ملبس، مغطى (بالخشب أو الحجر أو الجص)
Légende	أسطورة
Libéralité	هبة
Litanies	صلوات، قراءة آيات أثناء الصلاة
Location par adjucation	كراء عن طريق المزايدة

M

Magnésien	مغنيسي
Mamelon	ربوة
Manufacture	مشغل
Marne	جمعر
Masse rocheuse	كتلة صخرية
Masse travertine	كتلة ترافرتينية (صخرية جيرية)
Massifs montagneux	مرتفعات جبلية
Mauresque	موريسي، مغربي

Mausolée	ضريح (شخصية عظيمة)
Medersa	مدرسة (معهد إسلامي عال)
Meurtrière	كوة رمي القذائف (في حصن)
Moelon	حجر غير منقوش
Moeurs	عادات
Montagne boisée	جبل مكسو بالأشجار
Montagne racailleuse	جبل كثيرالحصى
Monument	أثر، بناء فني عظيم
Monument classé	أثر مصنف رسمياً
Monument historique	أثر تاريخي
Monument religieux	صرح ديني
Mortier	ملاط
Merlon	شرافة (عنصر زخرفي في أعالي الأبنية)
Mosaïque	فسيفساء
Mosquée-Cathédrale	مسجد-جامع
Motif de décoration	عنصر زخرفي
Muraille	سور
Mysticisme	تصوف

N

Naissance de l'arc	بدء القوس
Nef	جناح
Nef centrale	جناح مركزي

Nef latérale	جناح جانبي
Niche	حنية، مشكاة، محراب

O

Objet d'art	عمل فني
Oratoire	مصلى، مسجد صغير
Ornement	زينة، زخرفة
Ornementation	تزيين، زخرفة
Orné	مزين، مزخرف

P

Plan	تصميم قاعدي
Pan de mur	جانب، شقة (من جدار)
Panneau	مأطورة
Parapet	حاجز
Paroi	جدار
Pâturage	مرعى
Pente	منحدر
Pente (à double pente)	مائل الجانبين
Perche	عصا
Pilier	ركيزة
Piété	تقوى
Pieux	تقي
Piton	رأس الجبل

Pittoresque	تصويري، مثير للإعجاب
Plaine	سهل، أرض منبسطة
Plafond	سقف
Plâtre	جبس، جص
Plate-forme	أرضية (قاعدة البناء أو سطحه)
Plissement	تعرج
Poutre	عارضة، رافدة
Prodige de générosité	آية في الكرم
Promotoire rocheux	شناخ (أنف الجبل الداخل في البحر)
Proportions	أبعاد، نسب
Psalmodie	ترتيل

R

Raie	زخرف
Raie de coeur	زخرفة على شكل قلب
Reflet	بريق
Rehaussement	رفع، تعلية
Revêtement	تلبيس، تغطية (جدار بخشب أو جص)
Restauration	ترميم
Rite	طقس، شعيرة
Rituel	طقوسي، شعائري
Roche nu	جبل صخري أجرد
Rogation	صلوات، ابتهالات

Rude	وعر، قاس، خشن

S

Saillie	نتوء
Saillie (en saillie)	ناتيء
Sanctuaire	حرم (مسجد أو معبد مسقوف)
Schiste	نضيد (حجر متبلر ينفلق إلى طبقات)
Séculaire	قديم، عريق، قرني (يحدث مرة في القرن)
Site	موقع أثري
Site de construction	موقع بناء
Socle	قاعدة (عمود أو تمثال أو جبل)
Somptuosité	فخامة، عظمة
Solive	عارضة خشبية
Solivage	إقامة عوارض خشبية
Spécimen	عينة، نموذج
Stèle funéraire	شاهدة قبر

T

Tambour de coupole	عنق قبة
Temple	معبد
Térébinthe	شجرة بطم
Terrasse	سطح مستو
Tirant	وتر شد بين نهايتي عقد

Toit	سقف
Toiture	تسطيح، إقامة سطح
Torent	سيل
Travée	صف جدران مقوسة، مجال جناح
Travée (groupe de travée)	صفوف جدران مقوسة
Travertin	ترافرتين (حجر جيري)
Treille	كرم معترش
Trompe d'angle	حنية، ركنية
Trouvaille	اكتشاف أثري
Tuilles	قرميد
Type ethnique	نوع عرقي

V

Valée étalée	وادي منبسط
Valée quaternaire	وادي من العصر الجيولوجي الرابع
Valée tertiaire	وادي من العصر الجيولولي الثالث
Vantail	مصراع
Vestige	أثر، بقية صرح تاريخي أو ديني
Volige	خشب تثبيت قرميد (على السقف)
Voûte	عقد، قوس، سقف مقوس
Voûte à stalactites	عقد مقرنص
Vôute d'arêtes	عقد متصالب
Voûte en anse de panier	عقد مرتفع

Voûte en harccau	عقد نصف اسطواني
Voûtement	إقامة العقود
Voûtin	سقف مقوس، قوس

ملحقIII: أعمال ألفرد بل الكاملة
(حسب تاريخ صدورها)

1- كتب (مؤلفة أو مترجمة):

- *Les Benou Ghanya et leur lutte contre l'Empire almohade*. Paris, Leroux, Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger, Tome XXVII, 1903, 251pages.

- *Tlemcen et ses environs, guide illustré du touriste*, 1ère édition, Fouque, Oran, 1908, 156 pages; 2ème édition, Thiriat, Toulouse, 1919, 156 pages.

- *Histoire de Beni 'Abd-el-Wad, rois de Tlemcen*, par Abou Zakariya Yahia Ibn Khaldoun, texte et traduction, 2 vol., 3 fasc., Alger, Fontana frères. Vol. I: XIV pages introduct.+ 122 pages texte + 235 p. Trad.; vol. II: 1er fasc. III pages avertissement + 315 pages texte; 2e fasc., 475 pages trad.

- Alfred BEL et P. RICARD. - *Le travail de la laine à Tlemcen*, Alger, Jourdan, 359 pages, 231 figures et 1 planche hors texte.

- *Un atelier de poterie et de faïences au Xe siècle de J.-C. découvert à Tlemcen*, Constantine, Braham, 1914, 60 pages.

- *Le maroc pittoresque: Fès* (Album de photographies du commandant Laribe), Préface et notices; Paris 1917.

- *Le maroc pittoresque: Fès, Meknès et régions*. (Album de photographies du commandant Laribe), Préface et notices; Paris 1917.

- *Les industries de la céramique à Fès*, Alger, Carbonel. Paris, Leroux, 1918, 319 pages, 226 figures.

- *Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El Qarawiyin, Fès*, Imprimerie municipale, 1918, 16 pages texte français+160 pages texte arabe.

-Alfred BEL, et Mohamed BENCHENEB, *Takmilat es-sila d'Ibn El 'Abbar*, texte arabe, Alger, Fontana, 1920, 22 pages avant-propos +466 pages texte.

- *Zahrat El-As (la fleur de myrte) fondation de la ville de Fès, par Abou I-Hassan Ali Djaznaï*, texte et traduction, Alger, Carbonel, Publication de la faculté d'Alger, Tome LIX, 1923, XVI pages préface + 76 pages texte+191 pages traduction.

- *La religion musulmane en Berbérie*, tome I, Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie du VII ème siècle au XXéme siècle, Paris, Geuthner, 1938, 411 pages.

وكان قيد الإنجاز:

- *La religion musulmane en Berbérie*, tome II, état actuel de l'Islam en Berbérie:Islam original (doctrine et législation sunnites) et Islam mystique (culte des saints, confréries religieuses).

- *La religion musulmane en Berbérie*, tome III, *survivances des croyances et les usages magico-religieux antéislamiques dans la religion et les coutumes des indigènes actuels.*

2- دراسات بمجلات ومداخلات بملتقيات علمية:

- *La Djazya, chanson arabe, précédée d'observations sur quelques légendes arabes et sur la geste de Beni Hillal*, in J. A. (Journal Asiatique), 1902-1903 + 56 + 68 pages - Tiré à part: Paris, Impremerie Nationale, 1vol. 184 pages, 1903.

- *Lettres sur une inscription romaine de Tlemcen*, In B.S.G.O., 1903, 2 pages.

- *Les lacs d'Algérie, chotts et sebkhas*, mémoire présenté au Congrès des Sociétés françaises de géographie, Oran, 1902 - Oran, Perrier, 1903, 39 pages.

- *Trouvailles archéologiques à Tlemcen*, in R.A. (Revue Africaine), No 257, 2ème trimestre 1905, 9 pages.

- *Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de secheresse chez les musulmans maghrebins*, in Recueil de mémoires et de textes publié en l'honneur du XIVème Congrès des Orientalistes par les professeurs de l'école supérieure des lettres d'Alger et des médersas, Alger, Fontana, 1905, 50 pages.

- *Notices sur Ad-dorar as-saniya (Histoire des chérifs maghrebins)*, in Actes du XIVème Congrès des orientalistes, Alger, Fontana, 1905; une brochure, Paris, Leroux, 1905.

- *Une conférence sur la poésie arabe antéislamique*, in B.S.G.O., avril-juin 1906, 13 pages.

- *Quatre insriptions romaines du musée de Tlemcen*, in B.S.G.O., 1906, 5 pages.

- *La grande époque de Fès: le XIVème siècle mérinide*, Paris, 1916.

- Fès, conférence tapée à la machine par les services municipaux de Fès, 1916.

- *Coup d'oeil sur l'Islam en Berbérie*, in Revue de l'histoire des religions, Janv-fév. 1917, 72 pages.

- *Histoire d'un saint musulman vivant actuellement à Meknès*, in Revue de l'histoire des religions, 1917, 20 pages.

- *Un dahir chérifien du sultan 'Abdallah, fils de Moulay ismaïl*, in J. A., mars-avril 1917, 8 pages.

- *La fabrication de l'huile d'olive à Fès et dans sa région*, in B.S.G d'Alger et de l'Afrique du Nord, 1917, 19 pages + 7 pages.

- *Note sur trois anciens vases de cuivre gravé trouvés à Fès et servant à mesurer l'aumône légale du fitr*, in Bulletin archéologique, 1917, 30 pages.

- *Inscriptions arabes de Fès*, in J. A., mars-avril 1917, 28 pages; juillet-août 1917, 90 p; sept-oct. 1917, 54 p; sept-oct. 1918, 88 p; nov-déc. 1918, 64 p; janv-fév. 1919, 92 p; nov-déc. 1919, 14 pages.

- Alfred BEL, et Mohammed BENCHENEB, *La préface d'Ibn el 'Abbar à sa Takmilat es-sila*, texte et traduction, in R. A. 3e trimestre, 1918, 32 pages.

- *Les beni-Snous et leurs mosquées*, in Bulletin archéologique, 1920, 43 pages.

- *De l'enseignement réservé au indigènes musulmans dans les écoles qui leur sont spéciales*, in Bulletin de l'enseignement des indigènes de l'académie d'Alger, No 184-185, 1908, 27 pages.

- *La population musulmane de Tlemcen*, in Revue des études ethnographiques et sociologiques, Paris, Geuthner, 1908, 57 pages + 12 planches.

- *Articles "Almoravides" et "Almohades", in Encyclopédie de l'Islam*, E. J. Bril, Leyde, 1910; repris en un seul article "Les Almoravides et les Almohades", in B.S.G.O., tome XXXI, fasc. 123, 1910, 20 pages.

- *Note sur une inscriptions de habous du musée de Tlemcen*, in Bulletin archéologique, 1910, 7 pages.

- *Note sur un inscription de 1846 figurant sur le pont de Négrier*, In R.A., No 281, 2ème trimestre 1911, 11 pages.

- *Quelques monuments de céramique trouvés à Tlemcen*, in Buelletin arhéologique, 1911, 13 pages.

- *L'enseignement professionnel des jeunes filles indigènes en Algérie*, in Revue générale des sciences, 30 avril 1912, 3 pages.

- *Quelques mots sur l'ethnographie algérienne*, in Revue des traditions populaires, Paris, 1912.

- *L'enseignement primaire des indigènes algériens en 1912*, in Revue générale des Sciences, octobre 1912, 4 pages.

- *Fouilles faites sur l'emplacement de l'ancienne mosquée d'Agadir (1910-1911)*, in R. A., No 288, 1er trimestre 1913, 21 pages.

- *Tlemcen, porte orientale du Maroc*, in France-Maroc, 1920.

- *Introduction géographique et historique au Livret-guide de Tlemcen et sa région*, publié par le Syndicat d'Initiative de Tlemcen, 1re édition, Thiriat, Toulouse, 1921, 25 pages; 2e édition, Heintz frères, Oran, 1932, 22 pages.

- *Tlemcen, pages illustrées*, in Afrique du Nord illustrée, Alger, Fontana, 1921, 1re série, 16 pages; 2e série, 14 pages.

- *Les fêtes patronales à Tlemcen*, in L'illustré, Lyon, 1921. Arts et artisans indigènes de l'Algérie, in La renaissance de l'art français, Paris, avril 1922, 10 pages + 9 figures.

- *Sidi Boumédiene et son maître Ed-Daqqaq à Fès*, in Mélanges René Basset, Paris, Leroux, 1923, 38 pages.

- *Un discours de D. Miguel Asin Palacios à la Real Academia dellahistoria*, in Revue de l'histoire des religions, 2e trimestre 1924, 10 pages.

- *La codification du droit musulman en Algérie*, in Revue de l'histoire des religions, 2e trimestre 1927, 12 pages.

- *L'islam mystique*, in R.A., No 334, 1er trimestre 1928, 90 pages.

- *Une histoire de l'art musulman*, c.r. bibliographique de Georges MARCAIS, *Manuel d'art musulman*, in R.A., No 335-336, 2e et 3e trimestres 1928, 15 pages + 11 planches.

- *Documents récents sur l'histoire des Almohades*, in R.A., No 342-343, 1er et 2e trimestres 1930.

- *Caractères et développement de l'Islam en Berbérie, et plus spécialement en Algérie*, in Histoire et historiens de l'Algérie. Collection du centenaire, Paris, Alcan, 1931, 30 pages.

- *Les bibliothèques des médersas algériennes*, in "La lecture publique", Paris, E. Droz, 1931, 26 pages.

- *Les industries d'art indigène dans l'Afrique du Nord*, in Bulletin du Comité de l'Afrique française, 1931.

- *La connaissance des mentalités indigènes de l'Algérie*, in Actes du Congrès international et intercolonial de la Société indigènes (5-10 octobre 1931), Paris, 1931, 17 pages.

- *La fête des sacrifices en Berbérie*, in Mémoires publiés à l'occasion du Cinquantenaire de la Faculté des lettres d'Alger, 1932, 39 pages.

- *Les fractions de la tribu berbéro-arabe des Beni Hediyel (Sebdou mixte) dans une légende hagiographique*, in Actes du 2e Congrès national des sciences historiques, Alger, Carbonel, 1932, 17 pages.

- *Vestiges d'une villa royale musulmane du début du XIVe siècle de J.-C. dans la banlieue de Tlemcen*, in Actes du 5e Congrès international d'archéologie, Alger, Carbonel, 1933, 38 pages.

- *Contribution à l'étude des dirhems de l'époque almohade*, in Hespéris, 1933, 68 pages.

- *Survivances d'une fête de printemps à Tunis*, in Revue Tunisienne, Nos 19 et 20, 3e et 4e trimestres 1934, 9 pages.

- *Médersas, in l'Oranie biographique*, 1934-1935, 2 pages + 2 photographies.

- *Tlemcen*, in l'Oranie biographique1934-1935, 4 pages + photographies.

- *Une épitaphe tlemcenienne du XVe siècle de J.-C.*, in Actes du 1er Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord, R.A., No 362-363, 1er et 2e trimestres 1935, 17 pages.

- *Les médersas algériennes*, in Algéria, avril 1935.

- *Les fêtes du Rabb à Tlemcen*, in outre-Mer, Paris, 1er trim. 1935.

- *L'Islam officiel en Algérie*, in Bulletin de l'enseignement des indigènes de l'Académie d'Alger, Juillet-décembre 1935, 9 pages.

- Article "*Nédroma*" in Encyclopédie de l'Islam, E. J. Brill, Leyde, 1935; repris en un article "*Nédroma*", in B.S.G. Alger et de l'Afrique du Nord, 1935, 23 pages.

- *Le soufisme en occident musulman au XIIe et au XIIIe siècles de J.C.*, in Annales de l'Institut d'études orientales d'Alger, 1935, 17 pages.

- *L'ansara, feux et rites du solstice d'été en Berbérie*, in Mélanges Gaudefroy-Demonbynes, Le Caire, Impremerie de l'Institut français d'archéologie orientale, 1935, 35 pages.

- *Pour une enquête sur les survivances magico-religieuses en Afrique du Nord*, in Bulletin de l'enseignement des indigènes de l'Académie d'Alger, No 296, janvier-juin 1936, 16 pages.

- *Projet d'une enquête générale sur les industries traditionnelles des indigènes nord-africains (musulmans et juifs)*, in Actes du 2e Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord, R.A., No368-369, 3e et 4e trimestres 1936, 12 pages.

- *Berbères, Arabes, Islam*, in Encyclopédie coloniale et maritime, fascicule 9, Paris, 1937, 17 pages + 8 photographies.

- *Les premiers émirs mérinides et l'Islam*, in Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à E. F. Gautier, Tours, Arrault et Cie, 1937, 11 pages.

- *Vestiges de deux mosquées sur l'ancienne route de Tlemcen à Honaïn*, in Actes du 3e Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord, R.A., No 372-373, 3e et 4e trimestres 1937, 12 pages.

- *Article nécrologique sur Emond Destaing* (1872-1940), in B.S.G.O., tome 62, 2e trimestre 1941, 14 pages.

- *A propos de "Modd en-nabi" maghrebins*, in R.A., tome 89, 1er et 2e trimestres 1945, 6 pages.

3- تقارير بيليوغرافية :

- C.R. Bibliographique de René BASSET, *Nédroma et les Traras*, in B.S.G.O (Bulletin de la Société de Géographie d'Oran), 1901, 4 pages.

-C.R. Bibliographique de René BASSET, *La prosodie arabe et la traduction de la Khazradjyah.*- William et Georges MARCAIS, *Les monuments arabes de Tlemcen.* - O. HOUDAS et W. MARCAIS, *Les traditions islamiques et la traduction du Sahih d'El boukhari* - René BASSET, *Contes populaires d'Afrique*, in B.S.G.O., 1903, 23 pages.

- C.R. Bibliographique de : *Fr. CODERA, Estudios criticosde historia arabe-espanola.*- FR. CODERA, *Familia real de los Ben texufin*, in G.S.G.O., 1904, 4 pages.

- C.R., *Le XIVe Congrès international des orientalistes* (Alger 1905), in B.S.G.O., 1905, 12 pages.

- C. R. Bibliographique de : Augustin BERNARD et N. LACROIX, *L'évolution du nomadisme en Algérie.* - Augustin BERNARD et N. LACROIX, *La pénétration saharienne*, in B.S.G.O., 1906, 4 p.

-C.R. Bibliographique de : Edmond DOUTTE, *Magie et religion dans l'Afrique du Nord.* - Edmond DESTAING, *Etude sur le dialecte berbère des Beni Snous*, tome I. - Saïd BOULIFA, *Textes berbères en dialecte de l'Atlas marocain.* - S. BIARNAY, *Etude sur le dialecte berbère de Ouargla*, in B.S.G.O., tome XXIX, 1909, 17 pages.

- C.R. Bibliographique de : V. PIQUET, *Les civilisations de l'Afrique du Nord.* - C. BROCKELMANN, *Précis de linguistique sémique*, traduit de l'allemand par W. Marcais et M. Cohen.

- NEHLIL, *Etude sur le dialecte de Ghat.* - EL MAQRIZI, *Kitab Itti'adh el honafa bi-akhbar el Kholafa*, publié par Hugo Bunz. - Léon GAUTHIER, *Ibn Thofaïl, sa vie et ses oeuvres.* - Léon GAUTHIER, *La théorie d'Ibn Rochd sur les rapports de la religion et de la philosophie.* - René BASSET, *Mission au Sénégal.* - René BASSET, *Recherches sur la religion des Berbères.* - A. JOLY, *Etude sur les Chadouliya.* - J. DESPARMET, *Contes populaires sur les ogres.* - MONCHICOURT, *Moeurs indigènes, la fête de l'Achoura.* - MENOUILLARD, *Pratiques pour solliciter la pluie*, in B.S.G.O., tome XXXI, 1910, 22 pages.

- C.R. Bibliographique de : IBN MARYEM, *El Bostan fi dzikri l-aouliya wa l-oulama bi Tilimsan*, a) texte arabe publié par Mohammed Bencheneb, b) traduction française par Provenzali. - René BASSET, *La Banat so'ad, poème de Ka'b ben Zohaïr.* - A. Van GENNEP, *La for-mation des légende.* - EL BEKRI, *Description de l'Afrique septentrionale, édition de Slane.* - GAUDEFROY DEMOMBYNES, *Les cent et une nuits.* - TALEB ABDESSELEM, *L'organisation financière de l'empire marocain.* - V. PIQUET, *Notice sur les tribus de la région de Sebdou.* - V. PIQUET, *Campagnes d'Afrique* (1830-1910), in B.S.G.O., 1911, 16 pages.

-C.R. Bibliographique de : W. MARCAIS, *Textes arabes de Tanger*, in J. A., sept-oct. 1912, 9 pages.

- C.R. Bibliographique de: Edmond DESTAING, *Etude sur le di-*

- C.R. Bibliographique de: M. VONDERHEYDEN, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou l-Arlab*. - M. VONDERHEYDEN, *Histoire des rois 'Obaïdides (les Califes fatimides)* par Ibn Hammad, in R.A., 3e et 4e trimestres 1929, 11 pages.

- C.R. Bibliographique de: H. MASSE, *L'Islam* (collection Armand colin). - E. LEVI-PROVENCAL, *Etraits des histoiriens arabes du Maroc*. - Eric John HOLMYARD, *The arabic works of Jabir ibn Hayyân*, in R. A., 3e et 4e trimestres 1930, 9 pages.

- C.R. Bibliographique de: P. CARDONNE et RABOT, *La colonisation dans l'ouest oranais*.- Mouhssine BARAZI, Islamisme et socialisme, in R. A. 1er et 2e trimestres 1931, 7 pages.

- C.R. Bibliographique de: *Corpus de musique marocaine*, fasc.I, Alexis Chottin, Nouba de Ochchac. - L. MASSIGNON, *Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam*, in R.A., 3e et 4e trimestres 1931, 6 pages.

- C.R. Bibliographique de: Et. COMBE, J. SAUVAGET et G. WIET, *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*. - E. LÉVI-PROENVENCAL, *Inscriptions arabes d'Espagne*. - ABD EL HAFID EL FASI, Al Mudhich al mutrib, tome I. - L. BRUNOT, *Textes arabes de Rabat*, tome I, in R.A., 1er et 2e trim. 1932, 11 pages.

- C.R. Bibliographique de: E. ALBERTINI. G. MARCAIS et G. YVER, *L'Afrique du Nord française dans l'histoire*. - IBN - EZ-ZUBAIR, Silat as-sila. - V. PIQUET, *Histoire des monume-*

alecte berbère de Beni Snous, tome II. DE PROVOTELLE, *Etude sur le tamazir't ou zenatia de qalaat Essened*, in B.S.G.O., 1912, 13 pages.

- C.R. Bibliographique de: H. CARBOU, *La région du Tchad et du Ouadaï*, tome I, Etudes ethnographiques, dialecte toubou. - Augustin BERNARD, *Le Maroc*, In B.S.G. d'Alger et de l'Afrique du Nord, 4e trim. 1912, 13 pages.

- C.R. Bibliographique de: Georges MARCAIS, Les arabes en berbérie du XI au XIV siècle (thèse), in J.A., Sept-oct.1915, 11 pages.

- C.R. Bibliographique de: V. PIQUET, *Le Maroc, géographie, histoire, mise en valeur*. - Comte Maurice de PERIGNY, *La ville de Fès, son commerce et son industrie*. - C. A. NALLINO, *Appunti sulla natura del "califfato" in gencre e sul presento "califfato ottomano"*, in J.A., Nov-déc. 1917, 12 pages.

- C.R. Bibliographique de: GHAOUTSI BOUALI et Georges MARCAIS, *Histoire de Beni Merin, rois de Fès*, in J.A., sept.-oct. 1918, 5 pages.

- C.R. Bibliographique de : E. LAOUST, *Mots et choses berbères*, - P.RICARD, *Fès et ses environs*, in R.A., 3e et 4e trim. 1920, 4 pages.

- C.R. Bibliographique de: Mohammed BENCHENEB, *Mots turks et persans conservés dans le parler algérien*,in J.A., avril-juin 1923, 5 pages.

nts musulmans du Maghreb. - E. DESTAING, *Textes arabes en parler des chleuhs du Sous*, in R.A., 1er trimestre 1939, 19 pages.

- C.R. Bibliographique de: EL WANCHERISI, *Kitab el Willayât (le livre des magistratures)*. - H. MASSÉ, *Croyances et coutumes persanes, suivies de contes et de chansons populaires*. - P. ZOETMULDER, L'Islam en Indonésie. - G. H. BOUSQUET, *Introduction à l'étude de l'Islam indonésien*, in R.A., 2e trimestre 1939, 11 pages.

- C.R. Bibliographique de: H. TERRASSE, *La mosquée des Andalous de Fès*, in R. A., tome 88, 1er et 2e trimestres 1944, 4 pages.

4- دراسات بدائرة المعارف الإسلامية:

- *Abdel al-Mu'min*, I, p. 51 à 53. - *'Abd al Wâd*, I. p. 66. - *'Abelwadides*, I, p. 66 et 67. - *'Abd al-Wâhid al Rashid*, I, p. 68. - *Abû Hammû Mûsa* I. tome I, p. 91 et 92. - *Abou Hammû* II, tome I, p.92. - *Abû Madyan*, I. p. 100 et 101. - *Abû Tâshfin* I, tome I, p. 112 et 113. - *Abû Tâshfin* II, tome I, p. 113 et 114. - *'Ali Ben Ghâniya*, I. P. 288 et 289. - *'Ali Ben yusuf Ben Tâshfin*. I. p. 292 et 293. - *Almohades*, I. p. 318 à 322. - *Almoravides*, I. p. 322 et 323. - *Haïk*, II, p. 324. - *Ibn Ghâniya* II, p. 401. - *Ibn Khaldûn*, II, p. 418 à 420. - *Istiskâ'*, II. p. 599. - *Nédroma* III, p. 957 à 961. - *Tlemcen*, IV, p.843 à 847. - *Zayânides*, IV, p. 1290.

الفهرست

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية — الجزائر
2011
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél : (021) 84 85 98 / 84 86 11